ليرنتغ إنغلِش



ليرنتغ إنغلش

تصميم الغلاف: سحر مغنية

رشيد الضعيف

ليرننغ إنغلش



ISBN 978- 1- 85516- 967- 8

الطبعة الأولى، دار النهار، 1998
الطبعة الخامسة، دار الساقي، 2013

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 2033 - 6114

866442 -1 -961+، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

لم يكن ينقصني إلا هذا، أن يبلغني خبرُ مقتل والدي بالصدفة! بعد يومين من قوع الحادثة، أي غداةَ جنازته ودفنه!

فقد قُتل ظهر يوم السبت، ودُفن بعد ظهر الأحد، وبلغني الخبر ظهر يوم الإثنين!

كنت في بيروت في المقهى، في الـ"Café de Paris" ، كعادتي عند ظهر كل يوم، وكان إلى جانبي صديق توقّف فجأة عن قراءة جريدته، ليسألني بدهشة من يكون بالنسبة إليّ حمد ض. فقلت له والدي! فازدادت دهشتُه، ثم قدّم لي الجريدة بحركة آليّة لأقرأ فقرأت. كان الخبر وارداً في التقرير اليومي لقوى الأمن الداخلي، وكان مصوغاً بكلمات قليلة مقتضبة، ومطبوعاً بحرف صغير، كما تُطبع الأخبار المتفرّقة التي لا تستحق أكثر من الإشارة إليها:

"في ساحة التلّ في زغرتا، وبُعَيْدَ ظهر يوم السبت الماضي قُتل حمد ض. (حوالى الستّين عاماً) لأسباب ثأرية."

وقفتُ عن الكرسي كالمجنون وأنا أقول:
- معقول؟!

فأراد الصديق لما رآني اضطربت هذا الاضطراب، تخفيف الصدمة عنّي فقال:

- ألا يوجد شخص آخر بهذا الاسم؟

فلم أجب بشيء، وبدا عليَّ أنني ازددتُ اضطراباً ودهشةً، فقال حينئذٍ وكأنه يريد الاعتذار على ما سبّبه لي عفواً من أذى:
- أكيد أنت أنه والدك؟

يا الله!
لقد اغتالني بهذا السؤال. لقد فجّر دماغي بهذا السؤال.

أيمكن أن يكون أحسّ بشيء أو حدس بشيء، وهو خالي الذهن تماماً وبالتأكيد، لا يعرف شيئاً عني أكثر مما يعرفه مجرّد أي صديق مقهى. أم أنّ أصداءً بلغته عنّي ظلّ يكتمها طوال كل هذه السنوات، إلى أن

رشحت منه عفواً في لحظة الاضطراب هذه؟!

لا!

فلو كان على علم بأمر ما أو كان لديه شكّ فيه، لما سأل هذا السؤال، لأن سؤال العارف بهذه الأمور (وهذه الأمور بالذات!) تترتب عليه أشياء بالغة الجدية.

(يا الله!
أيجدر بالبراءة وخلوّ الذهن أن يؤذيا إلى هذا الحد!).

لكن ما لي ولصديقي الآن، فإن كان على علم بشيء ما أم لا، فهذا لا يغيّر في حقيقة ما جرى، وحقيقة ما جرى هو أن والدي قُتل، والأمر الأهمّ هو أنه جُنّز ودُفن في غيابي وبدون علمي.

فكيف يكون هذا؟!

فهل انتهز أعمامي مقتله فرصةً سانحة لينتقموا من والدتي، ومنّي أنا أيضاً؟! أم اتفق الجميع، والدتي وأعمامي، على الانتقام منّي بهذه الطريقة القاسية؟! وإلا فكيف يكون هذا؟!

كيف لم يخبرني أحد؟! وما أنا إلا في بيروت، على بعد هاتف من زغرتا، وعلى بعد ساعة في السيارة بعد ظهر يوم سبت، حيث تخفّ

عجقة السير من بيروت وإليها؟ وما من وسيلة اتصال متوفّرة في لبنان إلا وأنا مشترك فيها؛ عندي خط هاتف عادي ثابت في البيت، وعندي خطّ خليوي كنت من أوائل المشتركين فيه، قبل البدء بتشغيله عام 1995 بأكثر من ستة أشهر. ثم أنا مشترك بالإنترنت، ومغرم بالكومبيوتر وبكل ما هو رقمي، بل مسحور به أصرف ما أستطيع توفيره أحياناً من راتبي الشهريّ عليه. وعندي أيضاً علبة بريد خاصة بي. فأكثر الأشياء سهولة في العالم هو الاتصال بي، إنه أسهل من الاتصال بالغالبية العظمى من الناس، ولا أستثني منهم المنتمين إلى الطبقات الميسورة والغنية والحاكمة، التي بيدها مقدّرات الدولة. فكيف لم أبلّغ إذن!

ثم إنني لم أغب طويلاً عن بيتي طوال هذين اليومين، لا في الليل ولا في النهار، وكنت عندما أخرج لساعتين أو ثلاث، أضع المجيب الصوتي الذي يعمل جيداً، وقد تُركتْ لي عدّة رسائل عليه أول أمس السبت وأمس الأحد، واستمعتُ إليها بدون أيّ مشكلة.

فكيف يكون هذا؟!

هل دار الزمان دورته طوال هذه السنين الماضية كلها، ليبرهن أن تلك الكوابيس التي عشت رُعبها، خصوصاً في مرحلة صباي وأوّل الشباب، كانت مبنيّة على أساس وعلى حقيقة واقعة، وأنّ ما كنت أظنّه "أشياء" ينساها الجميع وأبقى أعاني منها وحدي، كانت تشغل جميع من حولي، خصوصاً أعمامي؟!

"رشيد رُوقْ!" قلتُ، "فليس ما يدعوك إلى افتراض الأسوأ فوراً. إنه بكل تأكيد لأمرٌ عظيم أن يُقتل أبوك وألا يُخبرك أحد بمقتله. لكنْ هذا كلّ ما في الأمر: لقد قتل أبوك و لم يخبرك أحد بمقتله. لا أكثر ولا أقلّ. فهذا ليس انتقاماً ولا استبعاداً ولا تنكّراً للقرابة، فلا تَعُدْ إلى فتح الدفاتر القديمة التي لا يحتفظ بها إلا أنت! لا شيء يدعوك إلى ذلك. وما سؤال صديقك إلا من باب الحَرَج الذي وجد نفسه فيه، هو لا ناقة له في الأمر ولا جمل. سألك هذا، لا لأنه يريد أن تجيبه عمّا إذا كنت متأكداً من أن الذي قُتل هو والدك، بل ليعتذر عمّا سبّبه لك عفواً من أذى، ولينقل إليك أمنيته بأن يكون الخبر كاذباً، أي ألا يكون القتيل والدك. كان سؤاله محاولة خروج من ورطة وجد نفسه فيها فجأة بلا رغبة منه ولا علم، و لم يكن نتيجةً حتميّة لعدم إبلاغك بالحادث، وعلاقة هذا بحقيقة والدك، ثم إنه لم يستنتج إطلاقاً من الخبر الوارد في الجريدة ومن ردّ فعلك عليه، أنّ والدتك وأعمامك لم يبلّغوك بمقتل والدك، فلا شيء يستدعي بالضرورة هذا الاستنتاج، لأنّ كلّ ما يستطيع الإنسان استنتاجه من هذا هو أنّ والدك قُتل وأنّك لست على علم بالأمر. هذا كلّ شيء، فَاهْدَأ! خذ الأمر برويّة، ثم عُدْ وتماسك بسرعة، لأن المقتول والدك، والأسباب ثأرية، وهذا يرتّب عليك أشياء تعرف جيّداً ما هي!"

صدمتُ.

فليس من الهيّن فقدان الوالد، فكيف بفقدانه نتيجة القتل، وكيف بهذه الطريقة في تلقّي الخبر - في المقهى بالصدفة. وحاولت أن أتماسك لكنّ الصدمة كانت أقوى منّي والمفاجأة غلبتني، ولم ينجح طبعي الهادئ في أن يمنعني من الإحساس بأنّ رأسي يدور على ذاته ألوفَ المرّات في الدقيقة الواحدة. كأنّ دماغي تعدّد وصار أدمغة يعمل كلّ واحد منها على حدَة، وفي اتجاه مختلف، وكأن الدنيا غابت عن الوعي، بل كأنها غابت وحسب.

في الطريق بين المقهى وبيتي، كنت أمشي على رصيف غائب، إلى مكان غائب، في منتصف نهار غائب، وسط بشر غائبين، وسيارات غائبة. وكان الضجيج بلا صوت، والصوت بلا وَتَر.

غريزة ما، لا أدري ما طبيعتها، قادتني إلى بيتي.

لذلك، فإنّ أول ما كان عليّ القيام به، هو تناولُ حبّة مهدّئة للأعصاب، لأنها تساعدني في العودة بسرعة إلى تماسكي، وفي الوصول بالتالي إلى بيتي فوراً لأجري بعض الاتصالات الضروريّة، قبل أن أذهب بلا إبطاء إلى زغرتا. والحبّة المهدّئة عادةٌ لديَّ، لكن عند الخضّات الكبيرة فقط، فأنا لست مدمناً عليها، بل أتناولها عند الحاجة وحسب، والحاجة هذه قليلاً ما تستجدّ، مرّات قليلة في السنة الكاملة.

مررت وأنا عائد من المقهى بالصيدلية، عند مدخل المبنى الذي أقيم فيه،

واشتريت علبة Ativan خفيفة (واحد ملغ)، وطلبتُ من الصيدلانيّة الشابّة كبّاية ماء، فاحتارتْ في أمري وهي التي تعرف أني أقيم في المبنى ذاته، فلا بدّ أنها تساءلت عن طبيعة هذه الحاجة الملحّة، التي لا يمكنني احتمالها لحظات يسيرة، هي الوقت الذي يلزمني لأصعد طوابق قليلة وأَبلغ شقتي. لكنها لبّت طلبي وإنْ بعد شيء من الحيرة، فشربتُ حبة واحدة وخرجتُ.

أنا في الحقيقة رجل هادئ بطبعي، أي بهذه الحبّة المهدّئة للأعصاب وبدونها، لكنْ بواسطتها الأمر الآن سيكون أفضل، لأن المستجدّ يحتاج تدبيره إلى مزيد من التركيز.

فوجئتُ حين عدت إلى بيتي بأنّ أشياءه لم تكن على أُلفتها المعتادة، كانت أشياء ميتة، أقصد أنها كانت صارمةً في كونها جماداً، كأنّ عدوى والدي الميت امتدّت إليها وحوّلتها، وليس غير عدوى والد ميت يستطيع ترك ذلك الأثر، وليس غير عدوى والدي يستطيع فعل ذلك في أشياء بيتي، لذلك فإنّ طبيعة شعوري تجاه هذه الأشياء، بدت لي تأكيداً لوفاته، بل تأكيد لشعور البنوّة الذي أختزنه في داخلي. فما هو رغم كلّ شيء إلا أبي ووالدي، وما أنا إلا ابنه وولده، من صلبه ومن لحمه ودمه.

اتجهتُ إلى الهاتف فور دخولي إلى البيت، كان هناك رسالة على المجيب الصوتي (الآلة تعمل!)، فسمعتُها قبل أن أطلب نمرة بيتنا في

زغرتا، علّها، أي الرسالة، تكون من هناك، من زغرتا، لكنها كانت من صديقتي، سلوى، وكانت مؤلّفة من كلمة واحدة وحيدة، تحوي كالعادة تاريخ علاقتنا كاملاً، بكلّ مشاكله المزمنة:

"أنا سلوى!"

ومعناها: "أنا في البيت، وأودّ وأستطيع المجيء لعندك وأنتظر أن تتصّل بي حتى أجيء، وإذا لم تفعل جرحتَ مشاعري، وأحرجتَني أمام والدتي التي تهتّني وتأخذ عليَّ أنني أنا التي أتصل بك دائماً، بينما أنت نادراً ما تتصل بي، وهذا يعني عندها أنّي أنا "اللي لاحقتك وأنت ما بدّك ياني!""

بعدما سمعت هذه الرسالة التي كانت من سلوى لا من أحد من الأهل هناك، وضعت فوراً تلفوني الخليويّ للتشريج، وفتحته، لتكون جميع وسائل الاتصال التي عندي في حالة جهوزيّة كاملة، حتى لا أدع حجّة لأحد بالادّعاء أنه عاجز عن الاتصال بي. لأنّ ما يجري خطير، بل خطير جدّاً. أدركت ذلك فوراً، بلا مقدّمات ولا تأويل ولا استنتاج، بل بغريزة هي فيَّ، في اللحم والعظم والدم، فما أنا إلا ابن هذه البلدة، وابن هذه البلدة بالذات، لا ابن أي مدينة أو منطقة أخرى، من لبنان أو من العالم العربي، ولا ابن نيويورك بالطبع أو ابن غيرها من بلاد الغرب، حيث اختفى الثأر كما يقال من العادات، و لم يعد يعرفه أحد، بل إن الروابط العائلية هناك تراخت، وهو أمر يُجمع عليه الناس إلى

حد كبير. فأنا من هنا، من هذه البلدة المعروفة منذ نصف قرن أو أكثر بعادات الثأر فيها، على طريقة أهل الجاهلية في الجزيرة العربية ما قبل الإسلام، حيث كان الأخذ بالثأر نوعاً من واجب ديني. فما زالت هذه العادات محافَظاً عليها إلى حدّ كبير، بلا تعديل أو تبديل جوهري، كأنّ فيها شيئاً أقوى من الأيّام والأزمنة، وكأنها من طبيعة مختلفة عن الأيّام والأزمنة، فتَعبرُها هذه الأيّام والأزمنة غير قادرة على ترك أثر فيها، فما زال الناس يعتقدون أن قتيلَهم لن يرتاح في قبره قبل أن يُثأر لدمه، وما زالوا يُقسمون على عدم التنعّم بمباهج الحياة قبل الثأر لفقيدهم، ومنهم من لا يستلم الجثّة قبل أن يثأر، فيتدخّل رجال الدين والمقامات الدنيوية الأخرى بأساليب يعرفونها لكي تجري الأمور كما يجب، ومنهم من يستلم الجثّة لكنه لا يدفنها قبل الثأر، ومنهم من يدفنها مؤقتاً ثم ينقلها إلى مكان نهائي لائق بعد أن يُطفئ بالثأر لهيب دمه.

وما زالت نساؤهم يَدفنّ أنفسهنّ في السواد، ويمتنعن عن الاعتناء بأنفسهن، فترات تطول أحياناً إلى أن يتمّ الثأر.

لقد خفّت حوادث الثأر فلم تعدْ على وتيرة العقود السابقة بالتأكيد، لكنْ أنْ يبقى القاتل فوق قشرة الأرض، متنعّماً بالضوء والهواء، فهذا ما زال عندهم أمراً لا يطاق. وما زالوا لا يؤمنون بعدالة أخرى، في هذا الشأن، غير العدالة التي تجري على يدهم وعلى هوى قانونهم غير المكتوب.

وما تغيّر اليوم من عاداتهم طال العَرضَ والشكلَ دون الجوهر، فكانوا يقتتلون أكثر فصاروا أقلّ، وكانوا يقتتلون بالخناجر أو بالسيوف فصاروا بالمسدسات، وكانوا يتنقّلون على الدواب فصاروا بالسيّارة، وكانت الديّة عيناً فصارت نقداً.

ورغم ذلك!

ورغم ذلك لم يتصل بي أحد ليبلغني مقتل والدي، و لم أدْرِ بمقتله إلا بالصدفة بعد يومين، وغداةَ جنازته ودفنه.

فماذا في الأمر إذن، وأيّ نيّة شرّيرة وراء هذا التصرف؟!

فماذا لو شاءت الصدفة أن تجري الأمور على عكس ما جرت، وألا أدري أبداً بالأمر، فهل كنتُ بقيتُ جاهلاً أنّ والدي قُتل، على بعد أقلّ من مائة كيلومتر من حيث أقيم، بينما مَنْ هُمْ مقيمون في أميركا عرفوا، ومن هم مقيمون في أميركا اللاتينية وأفريقيا، إذ قد بلغتني رسائل تعزية، من زغرتاويين منتشرين في هذه القارات جميعها، عن طريق شبكة الإنترنت، كما تبيّن لي في المساء في ما بعد، حين فتحت الكومبيوتر لأطّلع على بريدي الإلكتروني. وجميع هذه الرسائل لا تفصح عن شيء مما أنا بحاجة إلى معرفته، بل تكتفي بالتعزية والنصح بالرويّة وطول البال، بلغة خليط من إنكليزية وفرنسية وعربية بحرف لاتيني (Rooq, Tawwil balak!)،

ما عدا قلّة منها تعرض مساعدتي على الثأر.

في القضية إذن أكثر من عدم تبليغ، وفيها أكثر من نسيان أو تناس، فيها رغبة صريحة في الأذى الشديد والإساءة التي ما بعدها إساءة. فيها خطورة قصوى. فيها محاولة اغتيال، بل إنها محاولة اغتيال.

هل أرادوا أن يقولوا لي "إذا كنت ابن أخينا عن حقّ وحقيقة فتفضّل! خُذْ بثار أبيك!"

لكنني من جديد استدركت وقلت إنه عليَّ التروّي قبل الوصول إلى أيّ استنتاج من أي نوع كان، واتصلت فوراً ببيتنا في زغرتا، لأتكلّم مع والدتي أسألها بعض الأسئلة، وأستوضحها بعض الغموض، وأخبرها بقدومي، فلا بدّ من الاتصال قبل أن أنطلق، حتى يكون ذهابي على ضوء وليس في العتمة المطلقة. فليس من الحكمة إطلاقاً أن أذهب قبل أن أتصل، فعين الصواب الآن التحلّي بالصبر، فما كان قد كان، وساعات من الانتظار، بل ليلة، لن تغيّر في طبيعة الأمر شيئاً. لكنّ أحداً لم يجب. تركت الهاتف يرنّ مرّات عديدة، لكن بلا نتيجة، فقلت "ربما طلبت أحد الأرقام خطأً في غمرة هذا الاضطراب الذي أنا فيه، أو ربما نقلوا آلة التلفون إلى مكان آخر بعيد عن مكان استقبال المعزّين،" وقلت "أنتظر إذن قليلاً قبل أن أحاول مرّة أخرى."

لكنني تساءلت وأنا أنتظر، قبل أن أطلب رقم هاتف بيتنا مرّة ثانية،

"ما علاقتي بأمور هؤلاء القوم؟!" وما الذي يربطني بهم، وأحسست فجأة لكن بقوة ووضوح بغربة عنهم وعن مشاكلهم، وقلت لا بدّ أن يكونوا هم أيضاً يحسّون بهذه الغربة عنّي وأنهم لذلك لم يتّصلوا بي، وهو أمر مفهوم جداً بل طبيعيّ! أحسست بالفعل كأنهم كانوا شيئاً يعنيني لكن في حياة سابقة، أحسست فجأة كأنّي أدخل جلد شخص آخر، وكأنّ قوّة تزجّ بي الآن من جديد في أمر لا يعنيني. "ما عادت إلي هَ- الأشيا!"، لم تعد تناسبني هذه الأشياء، و لم تعد من عالمي، و لم تعد تليق بي، فأنا من زمان تحوّلتُ وصار عالمي آخر لا علاقة له بهذا العالم الذي ربيت فيه، هذا العالم الذي بات بالنسبة إليّ كأنه من حياة أخرى غير حياتي التي أحياها. Une vie antérieure كما يُقال في الفرنسية. فأنا الآن سعيد في هذا الوسط الذي أعيش فيه، سعيد في هذه الجامعة اللبنانية حيث أعمل أستاذاً في قسم اللغة العربية وآدابها في كليّة الآداب، وأقبض راتباً يسمح لي، رغم كل الغلاء والتضخّم وما إليهما، بأن يكون عندي بيت (إيجار قديم بالتأكيد!) في حيّ فخم من بيروت، فوق منطقة الحمراء، قرب أوتيل البريستول الفخم، على مقربة من منزل رئيس الوزراء الحالي السيد رفيق الحريري، أحد أغنياء العالم.

ثم أنا رجل مطلّق بعدما كنت متزوجاً من فرنسيّة، تعرّفت إليها في باريس أثناء إقامتي هناك من أجل تحضير الدكتوراه في الأدب العربي، وهي الآن مقيمة في بلادها لا يبلغني منها ما يزعجني، ولا يبلغها مني ما يزعجها، (ربما كان هذا من حسنات الزواج من أجنبيّة)،

ولي منها بنت "صارت صبيّة!"، (وليس لي منها صبيّ لحسن حظّي! فالصبيّ يهمه أكثر تاريخ أبيه. أمّا البنت فتذوب في عائلة زوجها). وقد صارت في الجامعة في باريس على أبواب التخرّج، ومعها منحة تكفيها عمليّاً للعيش بدون أن تُضطّر إلى طلب مساعدة منّي، وعلاقتي بها جيدة جداً. وقد تخطّيتُ الآن، من زمان، المشاكل المؤلمة العائدة إلى موضوع الطلاق، واستقرّت مشاعري على هدوء تام وحكمة ورويّة.

وعندي صديقة، هي ذاتها امرأة مطلّقة تعيش عند أهلها ولا أولاد لها، ولا مشكلة أبداً بيني وبينها فنحن منسجمان، وهي لا ترغب في الزواج مرة ثانية كما صرّحت مراراً أمامي (خصوصاً في الفترة الأولى من علاقتنا) وأنا كذلك مثلها، بل أكثر منها، لا أفكّر إطلاقاً في الزواج مرّة ثانية، وهي تملك ثروة صغيرة، عبارة عن عدد من الشقق في بيروت، مؤجّرة جميعها حسب قانون الإيجار الجديد، أي ما يردّ عليها حوالى ألفي دولار أميركي شهرياً، وهو مبلغ يسمح لها بالعيش مرتاحة إلى حدّ كبير، بدون أن تعمل، وهي تمدح حظّها دائماً، وتعلن سعادتها، لأنها ليست بحاجة إلى أن تعمل لتعيش، وهي لا تحبّ أن تعمل. أمضي معها أوقاتاً حلوة ولذيذة، فهي جدّ خدومة في الفراش، وقد اكتشفتُ معها أني أحبّ هذا النوع من النساء الخدومات، واكتشفتُ أنّ في دمي شيئاً من سلالة الفراعنة، يظهر حيث يجد سبيلاً إلى الظهور، وقد اكتشفتُ معها أني أحب أن أكون سيّداً في العتمة، بل اكتشفت أن هذه عندي لذة قصوى، وهي

على ما يبدو (حتى الآن) سعيدة في أن تكون على ما أحب، وتوحي لي دائماً أنها هكذا بطبعها، ولا تتصنّع شيئاً. المشكلة الوحيدة بيني وبينها أنها ليست حرّة في الخروج ساعة تشاء من بيت أهلها حيث تعيش بعد طلاقها، فوالدتها دائماً لها بالمرصاد، لا تنام قبل أن تعود ابنتها، فتفتح لها الباب عندما تعود متأخّرة وهي تقول: "الله خلق الليل للنوم!" (والدها لا يتدخّل في الأمر، بل يترك الوالدة تسوس الوضع بخبرتها)، وأنا أحبّ أن تكون المرأة أكثر Disponibilité لكنْ هذه بلادنا، ولا بد من التصرّف على أساس ما تسمح به الظروف. "جود من الموجود" يقول المثل.

وأنا سعيد بما هو معروف عنّي بين الناس من هدوء ورويّة وحكمة، وأنا فوق ذلك رجل مُكْتَفٍ من الناحية الماديّة لست في عازة قصوى إلى شيء.

ثم إني شخص معاصر. ألبس نظارات صغيرة العينين "ريترو"، "لوك" مثقف باريسي شهد أحداث الحركة الطلابية عام 1968 في فرنسا (أتصوّر أنني أثأر لوالدي بهاتين النظّارتين...!). وأجيد الفرنسية كتابة وقراءة ومحادثة، وعندي عائق واحد (Culturellement parlant) هو أنني لا أجيد الإنكليزية، وهو عائق قد استجدّ مؤخّراً وحسب، منذ عدة سنوات فقط، فقبل ذلك لم نكن – أنا ورفاق لي كثيرون – بحاجة إلى هذه اللغة الإنكليزية إطلاقاً لنمارس حداثتنا، وثوريتنا ونضالنا على كافة المستويات، السياسية والاجتماعية والمطلبية وما

إليها، كانت اللغة الفرنسية تكفي، وكنا راضين بها مكتفين، بل إن الإنكليزية كانت بالأحرى عائقاً يمنع عارفها من الترقّي، كانت الإنكليزية (أي لغة أميركا) لغة الأعداء، ولغة الاستغلال والهيمنة والغطرسة والسطحية في التفكير والبراغمائية، وكانت لغة المال والتجارة، ولم تكن لغة الفروقات الجميلة في التفكير، ولا لغة المستقبل، ولا لغة المساواة والعدالة الاجتماعية، ولا لغة النظرية المرشدة والوعي العميق. كانت الفرنسية لغة هذه القيم الجميلة، وكنّا بها أكثر اطمئناناً في تدبيرنا التاريخ، وسياستنا له، وإحكام قبضتنا عليه، لئلاّ يراوح مكانه، أو يتّجه حيث لا نريد. لكنني اليوم أحاول التعويض عن هذا النقص – أي عدم معرفة الإنكليزية – بتعلم هذه اللغة على نفسي وحدي، تساعدني أحياناً صديقتي التي تجيد اللغتين معاً، الفرنسية والإنكليزية، إجادة تامة. لكنّ الثمار ليست على قدر الجهود للأسف الشديد، والآفة تأتي من النسيان، فإنّي أنسى اليوم ما تعلّمته بالأمس.

بل أنا لا أستطيع تحمّل ألا أكون معاصراً، فقد كنت دائماً مع العصر والمعاصرة؛ كنت مع المدّ التقدمي التحرري العروبي، وكنت مع القصيدة العربية الحديثة والشعر العربي الحديث، وكنت مع الماركسية، وأتقنت الفرنسية، وكنت في النقد بنيوياً، وأتابع الآن ما يسمّى "ما بعد الحداثة"، وقد اشتريت كومبيوتر متطوراً جداً، وأنا الآن مشترك في الإنترنت، وعندي بالطبع بريد إلكتروني.

لا أتحمّل ألا أكون معاصراً.

أفسّرُ ذلك بأني لا أتحمّل أن أشيخ. التكنولوجيا الرقمية الحديثة تختصر الوقت والمسافة، قياساً إلى الأساليب السابقة، فتعطي الإنسان الانطباع بأنه ينتصر على الزمان والمكان، وهذا من صفات الألوهة. إنّه وهم الخلود الجميل. هكذا أحلّل حبّي وولعي بالعالم الرقميّ.

وقد توقّفت عن التدخين، وهذا موقف حَداثي جداً بل "ما بعد حداثي"، وأحافظ على وزني لئلا أسمن أكثر مما يجب، أي أكثر مما هو موصوف في المقالات التي أقرأها مترجمةً عن المجلات الأميركية، وأجري فحوصاً طبية احتياطاً، وأراقب تحوّلات بَشَرَتي بدقّة – عند الوجه بشكل خاص – فأزيل فوراً كل ما يطرأ عليها، مما لا لزوم له.

أنا رجل بتّ منذ انتهاء الحرب خصوصاً أحبّ الحياة، وأحبّ أن أتمتّع بها، (أقصد بالحرب، الحربَ في لبنان بين عامي 1975 و1990). وأنا رجل سعيد بما أختزن من تجارب صعبة، مررت بها طوال تلك الحرب اللعينة، وأسعد الآن سعادة كبيرة حين تتوافر لي المناسبة للكلام عليها. ولطالما حلمت بأن تنتهي تلك الحرب دون أن أقضي فيها، لأكون من الذين "عاشوا الحرب" و"ذاقوا مرّها". فما أحلى أن يختزن الإنسان من وزن تلك التجارب.

انتهت تلك الحرب وشعرتُ مع نهاياتها أنني ولدت من جديد، وأنّ عمراً جديداً كُتبَ لي. فلماذا إذن؟

لماذا؟

ماذا يريد الدهر منّي فلا يتركني أهنأ بهذا العمر، أو بما تبقّى منه، وخصوصاً أنني "أدّيْتُ قسطي للعُلى" وعشت البؤس، ككثير من اللبنانيين، وعشت القهر والظلم والخطر والذلّ وكلّ ما يمكن أن يعيشه إنسان في زمن الحرب. فماذا يريد منّي أعمامي ووالدتي الآن، لماذا يفتحون من جديد هذه الدفاتر المغلقة من زمان، بل لماذا ما يزالون يحتفظون بها، بهذه الدفاتر! لماذا يُراد لي أن تنبعث فيَّ من جديد، تلك الكوابيس التي أرعبت طفولتي؟ هل يدرون حقيقة ما يفعلون؟ وماذا يجنون من ذلك؟

أنا رجل هادئ بطبعي وأحبّ هذه الصفة فيَّ.

وأحلم أن يكون وقتي منظّماً على هواي، وأحبّ كثيراً أخبار الكاتب المصري الشهير نجيب محفوظ، نائل جائزة نوبل للآداب، عن انتظام حياته، وأعزو دائماً ذلك إلى انتظام الحياة في المدن العريقة والكبيرة كالقاهرة. وأحب كثيراً عبارة رشيد الضعيف الشعرية الواردة في كتابه الشعريّ الأوّل **حين حلّ السيف على الصيف**:

"حين تمطرُ السماءُ أوّلَ مرّة بعد انتهاء الصيف، تطمئنّ نفسي لانتظام الفصول".

فأشعر حين أقرأها، كأني جالسٌ مساءً، عند موقد في الشتاء، آمناً دافئاً، بينما العواصف في الخارج تجنّ حناجرُها.

وأحسد دائماً نجيب محفوظ على مدينته المستقرّة - القاهرة - بخلاف بيروت المدينة القلقة. لكنني عزّيت نفسي مع نهاية الحرب، بأني أستطيع أن أعيش الآن حياة مستقرّة في بيروت، لأن حرباً جديدة في لبنان لن تقع - إذا ما وقعت - إلا بعد سنوات طويلة جداً، قد تكون عشراً أو عشرين أو أكثر (قياساً إلى طول الفترات التي فصلت بين الحروب السابقة).

أنا رجل هادئ بطبعي، وحالة الهدوء التي أنا فيها الآن ليست ظرفية طارئة، وإن كانت نتيجة الحبة المهدّئة للأعصاب التي تناولتُها (كميّة حكيمة!)، لأسباب أرجو أن تكون عابرة.

أنا الآن، في هذه اللحظات، تحت تأثير الحبة المهدّئة للأعصاب، وهذا أسلوب كنت أعتمده أثناء الحرب في بيروت، في فترات القصف والخطف واشتداد المعارك، حيث كان يعمد غيري إلى أسلوب الشرب أو لعب القمار أو الاثنين معاً. فكل شيء الآن عندي في هذه اللحظات، بسبب هذه الحبّة، بلا نكهة، لكنني أفضّل ذلك ألف مرّة على التصرف بعصبية ونزق.

أنا لم أعد من هذا العالم الذي يعيش فيه أعمامي ووالدتي، فما الذي يجمعني بهم؟ لا شيء! لا شيء! إلا غموضٌ ما في نفسي، غموض لا أدري كيف أسمّيه، لكنّه واه أستطيع نسيانه واعتباره غير موجود، أستطيع التخلّي عنه.

التخلي!

أستطيع أن أقرّر الآن التخلّي عن كل شيء من ميراث والدي وعن دمه، بل عن اسمه أيضاً، نعم عن اسمه الذي ورثته عنه. فما هو سوى قاتل لم يحاكم على جريمته لما لعائلته من سلطان، لقد قتل زوج المرأة التي أجبرها عدّة مرات على معاشرته، وتركها لقدرها لم يسأل يوماً عمّا حلّ بها. أسمّي نفسي شيئاً آخر، أسمي نفسي ما أشاء، أسمّي نفسي رقماً أختاره من بين الأرقام، فرقم يكفيني، لأن كلّ ما يعرفني به الناس هو أعمالي وحسب، وتصرّفي ومعاملتي وليس غير ذلك، فما ينفعني اسمي؟ "شو بجبلي" غير كميّة من الفيروسات العالقة به أبداً، لا تُنفضُ عنه ولا تنفضّ! اسم يوحي بهذه الفئة المصابة بالميغالومانيا، العاصية على هذا المحيط. اسم يُبقيك غريباً في هذا المحيط الذي لا يألف إلا التشابه، فتضطرّ إلى الممالأة أو إلى العداء، أو تُقفل عليك المنافذ جميعها فتموت من غيظ أو من غصّة أو حرقة! أتخلّى إذن وأبقى هنا في بيروت، لا أعود أزور زغرتا أبداً، ولا أعود أضع فيها رجْلي كما يُقال. لكن !wait wait a minute (على طريقة الأفلام الأميركية في مثل هذه المناسبات!) فكلّ هذا لا يغيّرُ في واقع الأمر

الآن شيئاً، ولا يُغيّر من طبيعة المشكلة التي تبقى كما هي كاملة غير منقوصة، لا تفتر ولا تهمد، فقد قُتل أبي و لم أُبلّغ بمقتله وقد انقضى على الحادثة يومان اثنان، ولا شيء يمنع أعداءه من قتلي إن رأوا لذلك داعياً، فأنا المعنيّ الأوّل بمقتله لأنّي ابنه الوحيد، وأنا ابنه الوحيد مهما كان ومهما صار، ومهما قالت أمي ممّا تشاء دائماً أن تقول. (كانت والدتي تحمّل أجوبتها مرارة تقطع عليَّ الرغبة في طلب المزيد، عن السبب الذي أدّى إلى بقائي وحيداً، بلا أخ أو أخت. كانت تجيب باقتضاب شديد:

"لشو؟"

كانت تهرب من الجواب، بواسطة هذه المرارة التي تُضمّنها ردّها!

وكانت تجيب أيضاً:
"منين منجيب الأولاد؟"

ألم تكن تعرف والدتي من أين تأتي بالأولاد؟ "كيف جابتني إذن؟"

كيف أتت بي؟ أليس باجتماعها ووالدي على "شيء من الودّ" في فراش واحد؟)

لم يبلغوني بمقتل والدي وأنا المعني الأوّل بمقتله، والخطرُ الأكبر يقع

عليّ، خطرُ أن أقتل في هذه المعمعة، وهو أمر يجب ألا أستبعده إطلاقاً، ويجب أن أحتاط له كثيراً، إذ لا أحد يعرف كيف تتطوّر حوادث الثأر، وإلى ما تؤدّي، فالقاتل إذا ما كان شديد الحذر فعلاً، حتى الإصابة به، أي إذا كان مريضاً بالحذر كما يحدث أحياناً، فإنه قد يقتل أقرب الناس إلى القتيل – ضحيّته – حتّى يرتاح من عدوّ درجة أولى. القاتل الحذر يحلم بتصفية جميع أقرباء ضحيّته.

أتصوّر سيناريو آخر: يعجز أعمامي عن قتل قاتل والدي، أو قتل من يعتبرونه الرأس المدبّر، فيعمدون إلى اصطياد أقرب الناس إلى تلك الفئة، وأكثرهم اطمئناناً إلى بُعده عن الشرّ، فهذا يَسهُلُ اصطياده، فيعطون الحجة حينئذٍ لهؤلاء بالاستسهال أيضاً و"يفلت" حينئذٍ "الملقّ"، وتضيع الطاسة، ويتحوّل الثأر إلى سباق في الاستسهال، فلا يتردد المجروح في اصطياد الفريسة التي تطالها يده أوّلاً، فالدم يفضّل الـ فوراً. وأنا فريسة سهلة بل من أسهل الفرائس، فأنا مقيم في بيروت، حيث لا حيَّ خاصّاً بي أحتمي فيه ضمن حدوده، كما في زغرتا، وأنا هنا في بيروت لا بدّ أن أعيش حياتي كما تعيش حياتها مئات الألوف من الناس، أقصد أنه لا يمكنني مراقبة الناس جميعاً، كما تفعل العائلات هناك في أحيائها، ولا أستطيع الحذر من جميع الناس، والسؤال عن الوجوه الجديدة والغريبة التي أقع عليها كل يوم، والتقدّم ممّن أشكّ فيه وسؤاله عن سبب وجوده هنا إلخ، هذا غير ممكن، لذلك فأنا فريسة سهلة، وحين أقول ذلك لا أتخذ قراراً أو أملي واقعاً، بل أصرّح عن حقيقة واقعة وحسب، أنا جزء منها.

وزغرتا لم تعد بعيدة عن بيروت كما كانت منذ عشرات السنين، فلبنان اليوم أصبح كأنه مدينة واحدة، بل العالم كلّه أصبح كأنه مدينة واحدة. و لم يبلّغوني!

يا الله!

كم أنا مثالي حالم، حين يحلو لي أن أزعم أنني لا أنتمي إلى هذا العالم - عالمهم! لكن هذا الزعم لم يكن حلماً بل كان شعوراً.

كان شعوراً شعرت به بعمق، بأنّ هذا العالم - عالمهم - ينتمي إلى حياة سابقة، قد عشتها ربما ذات يوم، لكنها لم تعد تعنيني.

لكن هذا الشعور لم يدُمْ طويلاً على كلّ حال - et pour cause - شئتُ أم أبيتُ، بل لأني أنا الحدث، فلا يمكنني الهروب منه، فأنا مضطر إلى التعامل معه. أشبّه حالتي بالإنسان أوّل ما يصيبه المرض فيقول "شو خصّني؟" لكنه لا يتأخّر لحظة عن معالجة نفسه حتى يشفى. لم يدم هذا الشعور إذن أكثر من فترة عابرة، عاد بعدها الجوّ مشحوناً بالقلق والأسئلة الحارقة، وعدتُ يسكنني إلى حدّ الهوس هذا السؤال، كيف لم يُخبرني أحد؟

لماذا؟

تُرى هل حدث شيء لآلة التسجيل فلم تعمل لحظتها، لحظة اتصل بي أحد منهم ليخبرني، كانخفاض في التيّار الكهربائي مثلاً، في اللحظة التي كان على الآلة أن تعمل؟ هل حاولوا ترك رسالة و لم يعرفوا كيف لجهلهم بالأمر؟ لكنني لم ألاحظ أن المسجّلة فُتحت بدون أن يُترك عليها كلام، كما يحدث أحياناً، لأن كثيرين لا يحبّون ترك رسالة بأصواتهم لألف سبب، ولأن كثيرين لم يألفوا بعدُ المجيب الصوتي، أو يجهلون كيف يتركون رسالة عليه.

هل أرسل أحد من زغرتا ليُعْلمني، وليأخذني معه، لكنه ضلّ طريقه إلى بيتي؟ أم أنه استطاع الوصول إلى البيت، ولمّا لم يجدني وضع ورقة على الباب، يخبرني فيها بضرورة الاتصال به على رقم هاتف ما، خليويّ أو ثابت، فضاعت الورقة، كما يحدث لي من وقت لآخر حين يترك لي أصحابٌ، يزورونني بلا إخطار، ورقةً على باب شقّتي فلا أجدها، كأنّ أحداً يحلو له أن ينتزع عن بابي هذه الأوراق، وأشكّ دائماً حين يحدث ذلك في الناطور، وقد يكون الناطور هذه المرّة بالفعل هو من قام بذلك، لأنه يشطف درج البناية يوم السبت أو يوم الأحد مرّة في الشهر ومرّتين أحياناً، وتذكّرت أن الدرج غسل بالفعل أمس الأحد، أو أوّل أمس السبت، فركضت إلى الطابق الأرضي قرعتُ باب الناطور، فأطلّت عليَّ زوجته التي تكون معه دائماً أثناء غسيل الدرج، فسألتُها إن كانا رأيا رسالةً لي معلّقة على باب شقّتي فقالت: "لا أبداً، نحنا ما منمدّ إيدنا على شي!"

هل يمكن أن يكونوا عجزوا فعلاً عن الاتصال بي، هل يئسوا بعدما حاولوا مرات عديدة؟ هل ظنّوا أني مسافر إلى خارج لبنان، كما يحدث أحياناً كثيرة أن يظنّوا، بسبب غيابي الطويل عنهم؟ أحياناً يسألني عمّي حين يراني بعد فترة غياب طويلة، إنْ كنتُ مسافراً أثناء تلك الفترة، فأجيب بنعم حتى لا ينزلق اللقاء، كما ينزلق غالباً، نحو العتَب الذي أرى فيه دائماً محطّة كلام عند أعمامي، محطّة كلام وحسب، تخفي انزعاجاً أو خجلاً أو حياءً، ولا تخفي أبداً رغبة فعلية في رؤيتي. لا أذكر أبداً أنهم نظروا إليَّ صراحة وتطلّعوا في عينيّ مباشرة. و لم أكن بالتأكيد "شَوْفة نَفْس" عندهم. لم أشعر يوماً أبداً بذلك، بل بالعكس فما أنا سوى أستاذ وحسب، موظّف دولة، يقبض راتبه الذي لا يساوي شيئاً آخر كل شهر. أنا شخص لا يُعتدّ به ولا يُعتمد عليه. حين يحدث أن يذكرونني في أحاديثهم، يروون دائماً ما قالته لي جارتنا الأرملة المسنّة، التي تعمل في البيوت حتّى تعيل نفسها، لأنها لا معيل لها، قالت لي:

- أدّيش معاشك؟

قلت لها أقل من مئتي دولار (تدنّى راتبي إلى أقل من ذلك حين انهارت الليرة اللبنانية أثناء الحرب)، فأجابتني:

- الله بيدبّر!

يروي أعمامي هذه الحادثة ويضحكون من كلّ قلبهم.

(ليت الوظيفة كانت المشكلة التي تزعجهم فيّ، أو ليت المشكلة كانت قيمة راتبي الشهريّ!)

أحسست بغربة وأنا أطلب مرة أخرى أرقام هاتف بيتنا في زغرتا، كأنّني كنت أطلبها لأوّل مرّة في حياتي، وأحسست بحرَج شديد. كأني كنت أتصل بأحد يخجل من معرفته بي، أو من قرابته لي.

تركتُ جرس الهاتف يرنّ مرات عديدة، لكنني هذه المرّة، وبخلاف المرّة السابقة، استبعدت أن أكون طلبت الرقم خطأ بسبب الاضطراب الذي أنا فيه، واستبعدت أن يكون لا يسمع رنينه أحد، ففي أي مكان من البيت وُضع، لا يمكن ألا يسمعه أحد في الصالون الذي يجب أن يكون مليئاً بالنساء، والدتي والقريبات والمعزّيات، لأن جثة والدي يجب أن تكون مُمدّدت على السرير فيه قبل الجنازة، وأحيطت بهنّ الليل والنهار حسب عاداتنا، أليس هو الذي قرّر، عند بناء البيت، أن يكون الصالون كبيراً لمناسبات الأفراح والأحزان.

لا يجوز أن أتناول حبّة مهدّئة ثانية، لأن تأثيرها قد يؤدي بي إلى النوم، وهو أمر يجب أن أتحاشاه، لأن حاجتي الآن هي أكثر ما تكون إلى اليقظة.

كان عليَّ ألا أعيد الجريدة إلى صديقي، بل كان يجب أن أحتفظ بها لأقرأها ثانية.

نزلتُ أشتري جميع الجرائد المحليّة التي تنشر هذا النوع من الأخبار. كانت جميعها تنشر العبارة ذاتها، الواردة في التقرير اليومي لقوى الأمن الداخلي:

"في ساحة التلّ في زغرتا، وبُعَيْدَ ظهر يوم السبت الماضي، قُتل حمد ض. (حوالى الستين عاماً)، لأسباب ثأرية."

فهل يزيد هذا من صحّة الخبر، الذي لم أشكّ فيه على أي حال؟ ولماذا أشكّ فيه، وأخبار من هذا النوع ليست من تلك التي تُدسّ في الصحافة؟ فلم يحدث إطلاقاً أن دُسّ خبر مقتل أحد لأسباب ثأرية، في جريدة ما، أو في إذاعة أو في تلفزيون. ثم إنني – وهذا هو الأهم – أحسستُ عند عودتي إلى البيت، أن عدوى الموت انتقلت إلى أشياء بيتي، وهذا شعور لا يحدُث إلا إذا كان الميت قريباً جداً بالفعل، والداً والدةً أو عمّاً.

أخطأت إذ لم أرفع سماعة الهاتف، كي يعطي "مشغول"، في حال اتصل بي أحد أثناء غيابي لشراء الجرائد، فأحسست برغبة عارمة في الاتصال من جديد، فاتصلت وتركتُ الجرس يرنّ مرّات عديدة،

ودمي يغلي رغم الحبّة المهدّئة، قبل أن يجيب صوتٌ (أخيراً!) لم أعرف مَنْ صاحبُه، فبادرتُه، ما إن رفع السمّاعة وقال آلو، بقولي:

– أنا رشيد صحيح قتل بَيّي؟

فأجابني الصوت:

– من يومين! معوّض بسلامتك! هَيْ حال الدنيا!

ثم أضاف فوراً بدون أن يقطع سيلان كلامه:

– نقلنا التلفون من الصالون، وأقفل الخطّ في وجهي!

فهل أنا في حلم أم في يقظة أم أين؟

مَنْ هذا الذي أجاب في بيتنا على الهاتف، ولم أعرفه وتكلّم بالـ "نا"، قال نقلْ "نا" التلفون، وأردتُ أن أسأله عن اسمه فلم يترك لي مجالاً، وأقفل الخطّ في وجهي كأنّي متطفّل أتدخّل في أمر لا يعنيني إطلاقاً؟ فهل أكثرتُ من تناول الحبوب المهدّئة، بحيث بتّ أخلط بين ما هو حقيقة وما هو متخيّل؟ معقول؟ فهل تُعتبر حبّة واحدة "كثير"؟ أم أنني ثنّيت بلا انتباه، وهو ما أستبعده كليّاً لأنني ما زلت في كامل وعيي، وما زالت أزنُ الأمور بدقّة ووضوح، وما زلت

أتذكّر كل شاردة وواردة بالجملة وبالتفصيل.

ثم حاولتُ الاتصال بعد ذلك مراراً لكن بلا نتيجة. كان الهاتف يرنّ دائماً ولا أحد يجيب.

سَحبوا الفيشة إذن! "مش معقول!"

فتوتّرتُ وأنا في أمسّ الحاجة إلى الهدوء، لكن لم أدَعْ رغبتي في حبّة مهدّئة ثانية تغلب عليّ، خصوصاً أنني قدّرت أنّ الذي أقفل الخط في وجهي، قد يكون أحدَ الذين يخدمون هذه الأيام في محافل العزاء في زغرتا، وهو شابّ غريب الأطوار تماماً، يحضر فور سماعه خبر موت، ويفرض نفسه بما يؤديه من خدمات ضرورية. قلت، مرّة أخرى، ليس من حلّ بديل عن الذهاب فوراً إلى زغرتا. عليّ الانطلاق فوراً إلى هناك، بلا إبطاء، ومهما كانت المخاطر التي قد أتعرّض لها، وهي مخاطر وإن كانت جدّية في الحقيقة، لكنها في الواقع ليست كبيرة الاحتمال ويمكن تفاديها بالمزيد من الحيطة، ثمّ إن المخاطرة أفضل بكثير من التقلّب على نار الحيرة والشكّ والظنّ والتخمين. فإن بقيتُ في بيتي أحاول، من دون نفع، الاتصال بالأهل للاستفسار منهم عن الذي حدث، ولإخطارهم بقدومي، فسأبقى فريسة للظنون، وسيبقى سؤال صديقي في المقهى يؤرقني ويضطهدني، وسأبقى أُشحن بالغضب ضد أعمامي، وضدّ أمي أيضاً، وهذا كلّه لا داعي له خصوصاً إذا كنت أستطيع تلافيه. وجلست لحظات أستجمع قواي،

وأركّز أفكاري، محاولاً تحديد ما عليَّ القيام به، لئلاّ أقدمَ على عمل أندم عليه فيما بعد، وتساءلت وأنا كذلك عمّا إذا كان من الأفضل الاتصال بسلوى، وإعلامها بالأمر قبل الذهاب إلى زغرتا، لكنني ترددت بين الـ "نعم" والـ "لا"، بين الاتصال وعدم الاتصال، لأن الاتصال بها في هذه المناسبة المصيرية سيكون تكريساً لعلاقتنا، وسيشكّل اعترافاً مني بعمق هذه العلاقة وجدّيتها، وإقراراً بديمومتها، وهذا يعني تصريحاً من قبلي لا لبس فيه أنها ليست علاقة عابرة ظرفية، مبنية فقط على رغبة الاثنين في صلات جنسيّة وجلسات من الاسترخاء، كما أريدها دائماً أن تكون. ثم إن الاتصال بها، وإخبارها بالأمر، والطلب إليها المجيء، سيؤدي بها، بلا شك، إلى إخبار والدتها بذلك، مما يعني بدوره إقراراً من قبلي لوالدتها به "رسمية" العلاقة، وهو ما يعني عملياً وبمعنى ما "طلب يدها" من والدتها، بشكل غير مباشر بالتأكيد.

سلوى لا ترى العلاقة بيني وبينها كما أراها أنا، فهي، أي العلاقة، أمر هامّ جداً بالنسبة إليها، لذلك تحاول برويّة دؤوبة أن تجعلها تنزلق نحو العلنية أي "الرسمية". تطلب من والدتها مثلاً، مرة في الأسبوع على الأقلّ، أن تطبخ لي أكلة تحسن طبخها وأحبّها. وتطلب منها أحياناً، حين يرنّ الهاتف وتقدّر أني المتصل، أن تردّ لأضطرّ إلى الكلام معها، ولأضطر إلى تحيّتها وإعلان رغبتي لها في الكلام مع ابنتها: "فيني أحكي مع سلوى من فضلك!" أن تتعمّد سلوى نطق اسمي بصوت عال وdécontracté عندما ترفع السمّاعة وأكون أنا المُتصل، حتّى تُسمع والدتها وتُفهمها أني أنا المتصل، وحتى تفهمني أيضاً أن علاقتنا

هي "في البيت"، وليست بيننا وحسب! ثم إن الاتصال بها الآن في هذا الظرف، سيكون مناسبة لها لتسجيل نقطة حاسمة في صراعها مع والدتها حول مسألة إن كنت متعلّقاً بها أم لا، وسيكون نصراً واضحاً لها، ستقول لها بانفعال كبير وهي بعد لم تُقفل الخطّ "أنا ذاهبة عند رشيد فقد قُتل والده!"

يا الله! هذه أيضاً مسألة أخرى تضاف ولست بحاجة إليها؛ ستسألها والدتها أين وكيف ومَن ومتى! خصوصاً أنها ستبقى الليل عندي بكلّ تأكيد إذا ما منعتني أسباب من الذهاب الليلة إلى زغرتا، فلن تتركني وحدي في ظرف صعب كهذا، وقد تبقى الليل ساهرة لا تنام حتّى تستطيع الدفاع عن نفسها تجاه والدتها، فهي رغم أنها تُبقي أسرارها لها، لا تستطيع دائماً إخفاء مشاعرها، فإذا نامت، فسيكون نومها إلى جانبي في الفراش ذاته، وستكون ضعيفة عند هجوم والدتها عليها، وخصوصاً إذا ما قالت لها: "أكيد لم تنامي قربه وكلّ ثيابك عليك!" أمّا إذا لم تنم، فستكون قويّة على نفسها وعلى والدتها "سَهر الليل كلّه وسهرت معه، كان تعيساً، كان ينتظر اتصالاً، حاول أن يتّصل، إلخ،" لكنها لن تتركني وحدي، وهذا أمر أنا أكيد منه، وهذا أمر (الإقرار بالأمر الواقع ليس عيباً ولا نقصاً!) أنا مسرور به. سأصرّ عليها بالطبع كثيراً حتى تعود إلى بيتها آخر المساء، وحتى لا تحمّلني مسؤولية بقائها، لكنها سترفض بلا شكّ، وستكون فوق هذا جاهزة لكلّ مبادرة تساعدني على تحمّل هذا الوضع، وستقول على سبيل التذمّر، كل مرة تتصل بها والدتها "ليتني أستطيع العيش

وحدي! "شو هالبلاد!"" (تتذمّر من أن المرأة ليست حرّة في بلادنا)، وستتصل بها والدتها كثيراً، لكن على تلفونها الخليوي (لن تتصل على هاتف بيتي بالتأكيد!) لتسألها عن سبب تأخّرها إلى هذه الساعة، وعن الساعة التي ستعود فيها "عيب! كرمى لوالدك على الأقل!" ستحتجّ والدتها، كالعادة عندما يكون عند سلوى سبب وجيه للتأخّر، بوالد سلوى، وستضطرّ سلوى إلى إعطائها أسباباً قويّة ووجيهة لبقائها، مما سيثير حشرية الوالدة ويدفعها إلى طرح أسئلة جديدة، وسيجرّ السؤال السؤال، إلى أن تبلغ الأسئلة ما أخشاه، وهو لماذا لم أذهب أنا لحضور جنازة والدي. ستكون سلوى مجبرة على إدخال والدتها في قلب الموضوع، إذا ما اتصلتُ بها إذن وطلبتُ إليها المجيء. (ستكون حجّتها معها بالأحرى!) لا! لن أرضى بذلك، لن أقبل بأن يكون أحد في هذا الموقع الكاشف لأموري الشديدة الخصوصية، وخصوصاً أمّ سلوى، بل وسلوى حتّى، فسلوى لا تعرف الشيء الكثير عنّي، إلا ما تراه وتسمعه منذ بَدأتْ علاقتُها بي، وقد فهمَتْ من زمان، من أوّل الطريق، أني لا أحب الكلام معها عن أموري الخاصة، عن والديّ وعن طفولتي وعن حياتي العاطفية وزواجي وطلاقي إلخ، كما أنها هي أيضاً من جانبها، تقطّر عليّ تقطيراً أخبار علاقاتها الخاصة (علاقاتها! بالجمع؟) لكنها في الحقيقة تختلف عنّي كثيراً في هذه النقطة، فهي تُشعرني دائماً بأنها على استعداد لكي نتبادل تاريخَيْنا الشخصيين، وكثيراً ما تنصب لي فخاخاً لأقع فيها، لكنني دائماً شديد اليقظة من هذه الناحية. لم أشعر يوماً أن عندي ما أقوله لها لسبب بسيط، هو أن انفتاح الواحد منّا على الآخر، بهذا الشكل، يعني

اعترافاً من الطرفين بمتانة العلاقة بيننا، واعترافاً بكلّيتها، أي بكونها علاقة متكاملة، وليست علاقة مقتصرة على اللقاء الجنسي فقط. ثم هناك سبب جوهري آخر يمنعني من القبول بتبادل الأخبار الخاصة معها، فماذا سأخبرها أنا مقابل ما يبدو أنها تستطيع إخباري به! فقد أخبرتني مرّة بسهولة وانسياب هائل، ضعضع دماغي، أنها أرادت يوماً أن تحبل من رجل أحبّته، وهي ما زالت مع زوجها، (كانت في حالة توتّر مزمنة مع زوجها، ودائماً على حدود الانهيار. كانت تتناول أحياناً حبوباً نصحها بها طبيب قالت إنها تعرّفت إليه في إحدى السهرات، وأخبرته مشاكلها، كلّها). قالت إنها لم تكن تريد ولداً من زوجها، لأنها كانت مقتنعة في قلبها أن زواجها به لن يدوم، رغم كل الجهود المخلصة فعلاً التي كانت تبذلها لإنجاحه. قالت إنها قبل طلاقها أحبّت رجلاً، وكانت تشعر برغبة عميقة في الإنجاب، بل بالحاجة القصوى إليه، كانت بحاجة إلى أن تشعر بنفسها امرأة كاملة، لأنه بالأمومة تكتمل المرأة، وكم مرّة حاولت أن تقتنع بالحبل من زوجها، وأن تقنعه بذلك، لكنها كانت ترفض في أعماقها حين يقبل، فتحتال عليه حتى لا يتمّ ذلك، لأنها لم تشعر إطلاقاً بقدرته على أن يكون أباً، ولا باستعداده، ولمّا تعرّفت إذن إلى هذا الرجل وأحبّته، لما أبدى من اهتمام بها واحترام ومراعاة، قبل أن يظهر على حقيقته ويُضطرها إلى الهرب منه، تمنّت أن يكون لها ولد منه، وأرادت ذلك بالفعل، وكانت مستعدة أن تنسب الولد إلى زوجها في حال عدم حصولها على الطلاق. كانت أحياناً تحسّ نفسها قادرة على تنفيذ رغبتها وحدها، بالسرّ عن الاثنين. إنها لسعادة قصوى أن تحبل المرأة

من رجل تحبّه. لكن من الأفضل طبعاً - خصوصاً للولد - أن يكون ذلك بمعرفة الوالد. لم أجب أنا بشيء عندما أخبرتني ذلك، لكنها لا بدّ لاحظت شيئاً من الدهشة على وجهي، أو شيئاً من الانزعاج، رغم أنني حاولت أن تبقى ملامحه على ما هي، أي حيادية وبلا تعبير خاص، فأضافت عند ذاك "لكنني كما ترى، لم أحقّق شيئاً مما كنت أتمنّاه خلال فترة وجيزة جداً، من حياتي الزوجية، و لم أحقّقه لأنني لم أشأ تحقيقه، وهذا دليل على شيء واضح وأكيد!" كانت هنا، عند هذه النقطة من الحديث، تسكت، لتدعني أحزر ما هو هذا الشيء الواضح والأكيد. كانت تقصد به أنها وإن كانت تحلم أحياناً، تحت الضغط، ضغط الزواج التعيس البائس، بكثير من الحريّة، فما كان ذلك سوى حلم وحسب، حلم ناتج من الألم الذي تألّمته من زوجها. لكنّ هذا الحلم لم يتحوّل يوماً إلى واقع، بل ظلّت دائماً محافظة على حدّ أدنى من الأخلاق، لم تتخلّ عنه في أحلك الظروف. قالت ذلك لتطمئنني إلى أنها ليست من النوع الذي يقوم بمبادرات طائشة. لكنّ ما لاحظته على وجهي، واعتبرَتْه دهشة، لم يكن في الواقع دهشة، بل كان جمراً توهّج بعدما أزاح الريحُ عنه الرماد. وهذا بالضبط ما كنتُ في الحقيقة أخشاه، أقصد أخشى الكلام عليه معها، وأخشى أن أضطر إلى البوح به، أو إلى الانجرار بطريقة أو بأخرى إلى البوح به، أي إلى البوح بالأسباب التي جعلت وجهي يبدو على ما بدا عليه. هذا أمر يخصّني وحدي.

لكنني الآن بحاجة إلى أحد أتبادل معه الرأي، في هذه اللحظات

الحالكة الحاسمة من حياتي، بحاجة لأحد صديق وليس لأيّ كان، لسلوى ربما بشكل خاص، بل لسلوى بالتحديد، ولسلوى وحسب، فهي الأكثر إنصاتاً إليَّ حين أتحدّث عن مشاكلي، وهي الأكثر صبراً عليَّ والأكثر استعداداً للمساعدة بل والتضحية أيضاً. لا تتعب سلوى من الإنصات إليَّ. بل يلذّها ذلك. أحياناً عندما أفكّر بطريقة ضمّها لي وطريقة التصاقها بي، كأنني خلاصها الوحيد وقد حظيَت به، ولا تريد أن تتركه وتخسره مهما كلّفها الأمر، أقول ساعتَها إنها بالفعل تحبّني، وعليَّ أن أكون سعيداً بهذا الحب، فنادراً ما أحسستُ أن جسدي كنز نادر كما أحسست معها، بل نادراً ما تعاملتْ معي بهذه الغبطة وهذه الأناة وهذا الحذر، كأنّي بين يديها هديّة لا تتكرّر.

وأخيراً قرّرتُ أن أنتظر قليلاً حتى تتصل بي، بدل أن أسارع إلى الاتصال بها، خصوصاً أنها في مثل هذا الوقت تتصل بي عادة كثيراً، فتسألني عمّا سآكله على الغداء، لتُظهر لي مدى اهتمامها بي، لكنها لم تفكّر يوماً بأن تأتي الظهر لعندي، لتهتمّ بنفسها في تحضير الأكل.

قرّرتُ إذن بعد التفكير العميق، أن أقول لها حين تتّصل بي، إنّ والدي مريض وحالته خطرة، وإنه سيُنقَل اليوم أو غداً للمعالجة في أحد مستشفيات بيروت، وربما كان ذلك بين ساعة وأخرى. وجدتُ أن هذا الخبرَ أقلّ إثارة للأسئلة، وقلت إنني سأبوح لها بالحقيقة هنا عندي بعد وصولها. أما إذا لم تتّصل، فسيكون عليَّ أنا الاتصال لإخبارها، والطلب إليها المجيء، رغم ما سيترتّب على هذا من أشياء، لأنه

سيكون تراجعاً من قبلي، وتصريحاً مفاجئاً عن ضعف ما فيَّ. سيكون هذا نوعاً من بداية تغيير في الموازين بيننا.

رنَّ الهاتف وأنا مستغرق في هذا الأفكار، فركضت نحوه، لكنني ترددت قبل أن أتناول السمّاعة، لئلا يكون المتصل صديقاً قرأ الخبر في جريدة، أو لئلا يكون أحد المعارف يريد أن يسأل عن موعد التعزية في بيروت، فماذا سأقول وبماذا سأجيب. لكنني لا أستطيع ألاّ أجيب، لأن الاتصال قد يكون منها، من سلوى، وأنا في حاجة فعليَّة إليها، في حاجة عميقة، والغالب أن يكون منها فهذا وقت هاتفها، وندمتُ وأنا ذاهب لأرفع السمّاعة، على شربي حبّة المهدّئ الذي يقتل الرغبة الجنسيّة، لكنني استدركتُ وقلت إن الوقت ليس لهذه الأمور الآن، ثم استدركت أيضاً وقلت، ولكنْ لمَ لا؟ فالاستسلام الآن لنعومة يديها وحرارة اهتمامها أكبر عزاء، فهي حين تغمرني بذراعيها الطويلتين، وتشدّني إليها، فكأنها تتمسّك بي لئلا تقع على الأرض من سطح بناية عالية. أحبّ هذا وأعترف أنه يعزّيني ويسلّيني عن كثير من مشاكلي وهمومي، ولمَ لا عن أحزاني – بالمناسبة! وليس في هذا العمل لو حدث الآن، إهانة لذكرى والدي، وليس فيه ما يُشير إلى أنني monster وعلى كلّ حال فهذا أمر يجب أن أتركه لحينه، في حال كان له حين. كان عمّي هو المتكلّم، عمّي الأصغر زوج مريم صديقة أمّي، عرفته فوراً من صوته، قال بلا مقدّمات فورَ أن سمعني أقول آلو:

"معوّض بسلامتك! الحادثة كانت يوم السبت، وأمس الأحد كان

الدفن. وجودك هنا غير ضروري أبداً. الأفضل لك أن تبقى في بيروت، من أجل سلامتك!" ولم ينتظر حتّى أجيبه بشيء، أو أن أعلّق على ما قاله بشيء، أو أن أسأله عن شيء. أقفلَ الخطّ بكلّ بساطة!

معقول؟

لم يكن ينتظر منّي شيئاً! لم يكن ينتظر مني سؤالاً ولا حزناً ولا دهشة ولا غضباً ولا شيئاً أبداً أبداً، فنطَقَ بهذه العبارات كأنْ لرفع العتَب، كأنه يتكلّم إلى مسجّلة يسجّل عليها صوته، وأقفل الخطّ حين انتهى التسجيل. وأكثر ما أشعلني اعتباره أنّ بقائي في بيروت كان خوفاً على سلامتي! يعني إذن أنني بقيت هنا رغم معرفتي بالحادثة، وهذا يعني أنني عرفت بالحادثة!

يا الله!

يبدو أنّ فيروس الفوضى يتفشّى في هذا الكون، ويضرب مناعته المنطقيّة! أو أنّ قدرتي الشخصيّة على الفهم تتآكل لسبب أجهله، أو أنّي عقلانيّ أكثر من اللزوم أحمّل العقل ما لا طاقة له على حمله.

صحيح أنه، أي عمّي، كان لائقاً في كلامه، وصحيح أنني كنت صامتاً بينما هو يتكلّم، لكنني كنت أنصتُ منتظراً المزيد، وكنت أنتظر بشكل خاص اللحظة التي سيقول لي فيها، إنه سيُرسل أحداً ليأتي بي

إلى زغرتا، لأنه أعرَفُ الناس بالأصول، وأعرف الناس بما يجب عمله في مثل هذه المناسبات خصوصاً، فمَنْ يعرف مثله أنّ ابن القتيل لا يُترك ليأتي وحده، وأنّ ابن القتيل أو أيّ قريب له بهذه الدرجة من القرابة لا يُخبّر بخفّة، ولا يُلقى الخبرُ إليه كما يُلقى في شريط التسجيل، بل يُجرى التعامل معه بالتدرّج، وتُتّبعُ معه خطّة، فيُقال له بأنّ النار أطلقت عليه فأصيب لكنه لم يُقتل، إلخ. المهم أنه يُخبّر تدريجيّاً، ثم يُرسَل أحد ليأتي به، ويُخبّره الحادثة الحقيقية كاملة على الطريق. يعرف عمّي أنّ "المجروح" قد يؤذي نفسه إذا ما جاءه الخبر فجأة، فقد يضرب رأسه مثلاً بلا وعي أو بغضب شديد، وقد يبادر إلى أشياء مجنونة، لأنه قد يعتبر نفسه فوراً مسؤولاً عن مقتل قريبه، بسبب عدم قدرته مثلاً على حمايته، أو بسبب عدم تحذيره كفاية من غدر الأعداء، أو بسبب عجزه عن أن يكون رادعاً لهم بما يكفي، أو لألف سبب آخر. ألا يذكر عمّي قريبَنا الذي ضرب الحائط برأسه، عندما خرج من الدكان إثر سماعه عدّة طلقات نارية، فرأى فتىً يركض مذعوراً فسأله عن الذي جرى، فأخبره الفتى بما رأى، وذكر له اسم القاتل واسم القتيل بدون انتباه. ضرب قريبنا الحائطَ برأسه ضربةً واحدة، عندما سمع اسم القتيل الذي كان أخاه، فوقع على الأرض فوراً مغميّاً عليه، فنُقل إلى المستشفى وعاد منه بعد أسابيع، بطيء الإدراك والحركة، وما زال كذلك إلى اليوم. ألا يذكر عمّي قريبَنا، وهو جاره ويلتقي به كلّ يوم؟

يعرف عمّي كلّ ذلك، بل لا أحد يعرف أكثر منه، فكيف أقفل الخطّ

في وجهي إذن قبل أن يبلغ الحديث منتهاه؟ كأنه يكلّم إنساناً غريباً! أم أنني صَمَتّ لحظةً عندما توقّع منّي أن أقول شيئاً، فاعتبرَ صمتي غياباً للرغبة في الكلام، ولكنني إذا كنتُ فعلاً صمتّ لحظة، وهذا أمر لا أنكره لأنه ممكن الحدوث، كان الأحرى به أن ينشغل بالُه عليَّ، فمَنْ يدري ما تأثير صدمة مفاجئة من هذا النوع، فقد أكون صمتّ لأنني عجزت عن الكلام تحت تأثير الانفعال، ثمّ إنني في الحقيقة لا أذكر أني صمتّ، بل أذكر كأني كنت أتكلم معه، لكثرة ما كنت أتلقى كلامه بانتباه، ولكثرة ما كنت أنفعل به. ربما بدوتُ له هادئاً جداً، ومسيطراً تماماً على مشاعري وانفعالاتي، وهذا صحيح لا شكّ، فقد كنت تحت تأثير الحبّة المهدئة للأعصاب التي شربتها منذ قليل، لكنها لم تكن سوى حبّة واحدة وحيدة فقط، Ativan واحد ملغ، فهل هو هذا الهدوء وهذه السيطرة على الذات ما أعطاه الانطباع ببرودة مشاعري، فاغتاظ لذلك وأقفل الخطّ؟ لكنّ مشاعري في الحقيقة لم تكن باردة إطلاقاً. بل ربما هو الذي كان لديه استعداد مسبق، لكي يرى في كلّ شيء عندي برودة من المشاعر!

لكنْ حتّى لو افترضنا أنني أخطأت، فالمفجوع لا يُحاسب كما يُحاسب الإنسان في الحالات العادية، فخطأ المُصاب يُغضّ النظر عنه، ويجري التعامل معه كأنه لم يكن، أو يُعتبر دليلاً على عمق تأثّر المُصاب – وهذه هي العادة في الحقيقة – فمتى تغيّرت نظرة عمّي إلى الدنيا ليكلّمني بهذه الطريقة المقتصدة، وبأسلوب الرسائل البرقية. (لا أعتقد أن شيئاً تغيّر فيه، في عمّي، إنما حان الوقت عنده ربما ليفقأ الدملة،

وليُفرغ غضب قلبه المحتقن منذ زواج والدي، وبسبب الظروف التي أحاطت بحبل والدتي بي. أي منذ أكثر من أربعة عقود، منذ ما يزيد على ثلاث أو أربع وأربعين سنة!)

وفجأةً،
وفجأةً أحسست نفسي أخطُب في الناس أقول فيهم:
"يا أيها الناس!"

لكنني تمالكتُ نفسي من جديد، وعدت أستجمع قواي، وأتأكّد من أنّ ما يجري يجري بالفعل، وكان التأكد هذا عمليّةً بحاجة إلى تركيز شديد، بل إلى تركيز فائق الشدة، فما الذي يجري، ما هذا الذي لم يحدث مثله من قبل لأحد، ولم أسمع بما يشبهه، وقد بلغتُ العقد الخامس من العمر!

ليس من سبيل آخر سوى الذهاب إلى زغرتا فوراً بلا إبطاء.

ليس من سبيل آخر لكشف هذا السرّ الغريب، سوى أن أذهب بنفسي فوراً قبل أن يضعضعني الظنّ والوسواس، بل قبل أن يقضيا عليّ، وخصوصاً أنه ليس في الثأر شيء غيرُ متوقّع، وليس فيه شيء غريب يخرج عن مألوف الناس، فالثأر قتلٌ وليس اغتيالاً، أي ليس جريمةً مجهولة الفاعل أو مجهولة الدافع والأسباب أو الاثنين معاً - ويستوجب إلقاء الضوء عليه وكشفه حتى تطمئنّ النفوس. ففي الثأر حين يردُك

الخبر تُصعق، إذا كنت أهلاً أو قريباً أو معنيّاً بشكل أو بآخر، وتفاجئك لحظة الحادثة المتوقّعة في المبدأ لا طبيعتها. وإذا كنت مثلي، "رجْل في البور ورجل في الفلحان" كما يقول المثل، أي لست تماماً في هذا الجوّ ولا تماماً خارجه، فإنّ مشاعر متنافرة متناقضة تتجاذبك ساعتذاك، مشاعر من نوع الرغبة في البطش ثأراً للدم، أو الرغبة في الغفران والدعوة إلى السلام والوئام، أو كسر حلقة الثأر المفرغة وجعل السيادة للقانون، أو ترك الأمور تجري على هواها، وذلك حسب من تكون أنت، وحسب طبيعتك وأوضاعك وظروفك وما إلى ذلك.

ثم تجري الأمور في حالات الثأر كما العادة أن تجري، بلا مفاجآت أو أحداث غير متوقعة، يعني بالثأر أو بمحاولة الثأر، أو بالمصالحة النهائية، أو بالمصالحة إلى حين، أو بالتناسي حتى تحين الفرصة الملائمة، أو بالتناسي وحسب، أو بما هو من طبيعة ذلك.

لكن أن يكون ما حدث ثأراً، وأن تجري الأمور كما جرت، فهذا خارج عن كلّ مألوف.

كنت هادئاً بسبب تأثير الحبّة المهدّئة للأعصاب و لم أندم على ذلك، بل كنت مستعداً لتناول حبوب منوّمة بدل الحبوب المهدئة لو قَدّرتُ أن الحاجة تستلزم ذلك. كنت هادئاً وواضح الذهن أميّز بين الأشياء تمييزاً دقيقاً، وأسمع وأنصت بانتباه كلّيّ، وكان على عمّي أن يُدرك هذا الأمر، فكيف سمح لنفسه بتفسير تصرّفي تفسيراً سلبياً، أدّى به إلى

إقفال الخط في وجهي، بهذا الشكل الفجّ، قبل أن ينتهي الحديث، أي قبل أن نتّفق على كل شيء، على طريقة مجيئي خصوصاً، مع من ومتى، وعلى الطريق التي يجب سلوكها لأكون في أمان، ثم إنه لم يمهلني الوقت لأستوضحه عن القاتل! فمن هو القاتل؟ هل هم "الأعداء" التقليديون، ومن منهم أطلق النار، أم أنه خلاف جديد لست مطّلعاً عليه، أم أنه حادث طارئ؟ وأسئلة لا تُحصى تَردُ على الذهن في مثل هذه اللحظات الحرجة. فلماذا هذا الإصرار على اعتباري خارج الموضوع، وماذا يجني منه عمّي وإخوته من أرباح، وما طبيعة هذه الأرباح؟

الذي اتصل بي بالهاتف كان إذن عمّي الأصغر، وبينه وبين والدتي ما بينهما، وما بينهما ليس الحبّ والودّ بالتأكيد، فهو لا يحبّ والدتي إطلاقاً، ولا هي تحبه، وذلك رغم مهادنتهما أحدهما للآخر بعد زواجه بمريم صديقة والدتي الحميمة ومستودع أسرارها وأخبارها. فعلى مدى سنوات طويلة لم يكن بينهما سوى الكره الصريح المعلن، والرسائل السامّة المحتوى تتناقلها الألسن الوسيطة. والحقيقة أنهما لم يكونا بحاجة إلى وسطاء أبداً، فما من أحد يستطيع فهم مقصد الآخر مثلما يستطيعان فهم مقاصد بعضهما، "على الطاير!" وليس من أحد قادر على الإدراك الفوري للآخر كما هما قادران. تكفي إشارة، يكفي حضور، يكفي غياب، لمحة بصر، تنهيدة، شرود انتباه، همٌّ بالكلام، عدول عنه، سكوت، إلى آخره. حين تراه والدتي ماشياً وتعلّق على طريقته في المشي، أفاجأ

بهذا الذكاء الثاقب الذي ينمّ عنه التعليق:

"ليك كيف ماشي! مصدّق أن الأرض مدوّرة، فزعان يوقع!"

أسمّي هذا ذكاءً خبيثاً.

أو تقول حين تسمعه يحلّل خبراً يقرأه في جريدة، أو يعلّق عليه:

"يظنّ نفسه اللبناني الوحيد الذي يجيد القراءة والفهم، منذ أيام الفينيقيين!" (على أساس أنّ الفينيقيين هم أول من اخترع الكتابة)

(كنت دائماً أقول في نفسي، حين أسمع هذه التعليقات، أنّ والدتي تتمتّع فعلاً بذكاء خارق نفّاذ، لو وظّفته في مكان ما لكانت أبدعت. وكانت تقودني هذه الأفكار إلى الوضع في لبنان عامة، وإلى المفهوم الشائع فيه، والذي مفاده أن الطوائف والمذاهب تتحارب لأنها تجهل بعضها بعضاً، وأنّ الحلّ لهذا التحارب يكون بالتعارف، لأن الإنسان عدوّ ما يجهل، فكانت تقودني إذن أفكاري هذه عن أمّي إلى القول: "ولِمَ لا يكون الإنسان عدوّ ما يعرف حقاً؟")

عمّي هذا ذاته، هو الذي علّق بخبث ذات مرّة على قولي لأولاد عمّي في حضوره، أني الوحيد، بين جميع أقرابي وأصحابي، الذي ليس له أخ أو أخت، فقال:

"حتى تشبه أمّها؟"، يقصد أنه لو كان لي أخت لكانت تشبه أمها، أي كانت سامّة بلا أخلاق...

وقالها بصوت يكاد يكون مسموعاً، لكنني سمعتها بوضوح غريب. "رنّت في أذني!" أحسست أنّه كان يدرك فظاعة ما يقول، لذلك أخفض صوته إلى هذه الدرجة، حتى يستطيع أن يُنكر أنه قالها، إذا ما دعته الحاجة إلى ذلك.

لا!
لن أقع في الفخّ!

فالآن وقد قتل والدي، فإن أعمامي سيجرّونني أنا ووالدتي إلى الهلاك، إن استطاعوا.

لا! لن أجَرّ إلى العمل برغبات أعمامي! لن أجرّ إلى تنفيذ رغباتهم. لن أثأر لأبي بقتل قاتله أو أخ له أو قريب !No way، لن يجبروني على ذلك! وأمّي في هذه المعمعة ماذا تفعل الآن؟ إنها ساكتة بكلّ تأكيد. صامتة. تجترّ همّها وحدها.

(همّها؟)

وجدتُ نفسي أتمتم فجأة بهذه الكلمات، بصوت مسموع شديد الوضوح، بل يقرب إلى الصراخ.

لم يخبروني إذن بمقتل والدي ليُشعروني بأنهم لا يُقيمون لي اعتباراً ولا يحسبون لي حساباً، فما أنا بالنسبة إليهم سوى ابن أمي التي لم يتبنّوها يوماً، و لم يعتبروها منهم ولهم، ولست سوى "متعلّم"، سوى أستاذ أدب في الجامعة، لا أنفع شيئاً في ساعات جدّ كهذه، أي بصريح العبارة أنا بالنسبة إليهم شبهُ رجل لا رجل كامل.

ولكن ما ينفعهم ألاّ أحضرَ جنازةَ والدي، وألا أبكي على جثته، وألا أتقبّل تعازي المعزّين؟

أيعتبرون هذه الطريقة التي يتّبعونها، استفزازاً لي يُنشّط الدم في عروقي، فأتحرّك في الاتجاه الذي يريدون؟ هل يعتقدون أنهم قادرون على تحريكي عن بعد، بالريموت كونترول؟

إنهم لم يخبروني لأنهم أرادوا أن يمارسوا ضغطاً عليّ، وأن يجبروني على الثأر لوالدي بنفسي. آه لخبثهم! آه لخبثهم البدائيّ! يريدون أن يقولوا لي إذا كان دمك من دم أبيك ومن دمنا فتفضّل! يُشعرونني بالاحتقار فيدفعني هذا الشعور إلى برهان العكس. هل هذا هو فعلاً هدفهم. هل يخطّطون ليوفّروا أنفسَهم وأولادهم في مرحلة أولى، حتى إذا ما فشلت خططهم في دفعي إلى المبادرة بادروا بأنفسهم. لكنهم مخطئون

سلفاً إذا كانوا يُجرُون حساباتهم على هذا الشكل، فأنا لن أثار لأبي، ولا أريد منهم أن يثأروا له. هذه موضة قديمة، موضة بايتة، انتهينا منها. هذه أصلاً قناعة عندي ثابتة، وهذا إن أرادوا اللعب قرار نهائي وحاسم لا ينفع معه اللعب. نقطة على السطر. واضح كعَين الشمس. فأنا رجل معاصر، ولا أرضى بأن أكون أقلّ من ذلك. أمّا الثأر فإنه من الماضي، فليذهب أبي وإخوته وأقرباؤه وأنصاره وأعداؤه وقاتلوه إلى جهنّم، فكم مرّة حذّرته من هذه الحلقة الجهنّمية التي لا خروج منها ولا خلاص. وإذا كانوا لا يعتقدون بأنني رجل بكلّ معنى الكلمة "يصطفلوا!" فأنا لست بحاجة لشهادة منهم لأقتنع برجولتي. وعلى كلّ فإن اقتنعتُ أو لم أقتنع، فهذا موضوع محض شخصيّ يخصّني وحدي وليس لأحد أن يتدخّل فيه، وإذا كانوا يعنون بالرجولة الجرأة على طريقتهم، أي أن يكون الإنسان "قبضاي"، وهو ما يسمّونه الرجولية، فهذا أيضاً أمر لا يعنيني، فأنا لست من أصحابها ولا أريد أن أكون منهم، وهم حين يسخرون منّي بخبث يقصدون خصوصاً أنني لا أتصف بالرجولية، أي إنني لا أتّصف بالجرأة والإقدام وما إليهما من قيم الثأر التي يقدّرونها ويثمّنونها كثيراً، فالرجولة بالنسبة إليهم لا تقوم مقام الرجولية، والرجولية أهم بكثير، لكنّ النموذج والمثال هو أن يجتمعا في شخص واحد. نعم! كما كانا مجتمعين في والدي! نعم! والدي هو نموذجهم، والمثال الذي يسعون جميعاً لبلوغه، فإن لم يستطيعوا فالاندهاش أمامه، ورفع اليدين إقراراً بتفوّقه!

كان لوالدي تسع عشرة سنة عندما بدأ يكتسب صفاته النموذجية

تلك، فقد افتتح حياته، كقبضاي، بقتل زوج امرأة كان يعاشرها. كان دائماً يُنكر أنه الفاعل، وكان يتّهم سلفَها أخا زوجها بقتل أخيه وهو سكران، وكان الناس القريبون منّا بالقرابة أو بالسياسة، يميلون إلى تصديق هذه الرواية، خصوصاً أن الأخ كان حاول الزواج من هذه المرأة عندما كانت عزباء، لكنها لم تقبل به، وقد ألحّ وقتاً طويلاً قبل أن يتخلّى نهائياً عن رغبته، ثم إنه كان يُكثر من زيارة بيت أخيه، خصوصاً بعدما أنجبت ولدين ذكرين، كان يُظهر نحوهما حباً كبيراً جداً. كان والدي يُعطي الحجج التي لا تُرد عن مسؤولية الأخ، فقد رآه يشرب العرق قبيل الحادثة بدقائق، وقد سلّم عليه ومسّاه بالخير، وأراد الأخ ردّ السلام فتعثّر لسانه في فمه، وكان هنا شهود (أي حضور)، وقد سُئل صاحب الدكان عدّة مرات، واستُحلف أن يقول الحقيقة فقال الحقيقة، والحقيقة عنده هي أن الأخ اشترى من عنده بطحة عرق، جرياً على عادته كلّ يومين أو ثلاثة. نعم! وقد اشتراها عند المساء، يعني قبيل وقوع الحادثة بقليل، بنصف ساعة ربّما، أراد الأخ قتل أخيه لأنه طلب منه أن يوقف مجيئه إلى بيته، بعدما تزايد الخلاف بينهما بسبب الإرث، وبسبب أنّ عين الأخ كانت على الزوجة، كان الزوج يفاجئ أخاه في أمكنة في البيت لم يكن عليه أن يكون فيها، حتى وإن كان أخاً. كانت الزوجة سكوتة جدّاً بطبعها، خصوصاً في مثل هذه المسائل، لكنها رغم ذلك أقرّت لزوجها عندما سألها، بأنّ أخاه يُزعجها بنظراته، ويربكها بتصرّفه في البيت بحريّة زائدة. وقد مشى والدي في جنازة القتيل، وهذا برهان على براءته، فلو كان هو القاتل فهل استطاع ذلك؟ (والدتي كانت دائماً تبتسم ابتسامة ساخرة لدى

سماعها أو روايتها هذه الحجّة) رأته والدتي بعينها يمشي في الجنازة، وكانت بعد لم تتزوج، ولو علمتْ في الوقت المناسب أنه كان الفاعل لما تزوّجته، ولو تحت ضغط العالم كلّه. كانت دائماً تقول لصديقتها مريم: "كم كنتُ غبية جاهلة! فلو علمت بالأمر قبل زواجي لكان ذلك وفّر عليَّ هذه الحياة الجهنّمية التي أعيشها!" والدتي علمت بعدَ زواجها أنه كان القاتل، وكانت تملك عن الحادثة معلومات مفصّلة وأكيدة لا يمكن أن يشكّ فيها أحد، وكانت تدري أنّ ظروف القتل لم تكن مرتبطة بالعداء القديم بين العائلتين، بل بالعلاقة بالمرأة، فقد دخلت المرأة عند المساء، إلى الحمّام المنعزل المبنيّ وحده خارج البيت - كما كانت العادة في تلك الأيام - لغرض ما، ربما كان غسل الثياب، والأرجح أنه كان لغسل الثياب، لأن زوجها كان يعود من العمل في مثل هذا الوقت، وكانت تُبقي على كل ما لديها من ثياب متّسخة حتى هذا الوقت، وقت عودة زوجها، لتغسلها مرة واحدة مع ثيابه. وكان على يدها الطفل، الذي كان عمره أقل من سنة، فرآها والدي تدخل، وكان على ما يبدو في أوّل علاقته بها، فلحق بها وأغلق الباب وراءه بعدما تركته المرأة مفتوحاً، كعادتها عندما لا تريد قضاء حاجة تستدعي إغلاقه، أي عندما تريد غسل الثياب أو الجلي أو ما شابه، فلم تدرِ المرأة إلا وقد أحاطها والدي بيديه الاثنتين، فحاولت ردّه بدفعه عنها (والدتي تروي هذه الحادثة بدقّة غريبة، كأنها في الحقيقة لا تروي حادثة بل تقرأ سيناريو وضعته بنفسها عن حادثة من تأليفها، تصرّ على ألا تهمل شيئاً من تفاصيلها مهما دقّ وصغر) وبينما هي تحاول تنبيهه إلى المخاطرة الكبرى في هذا التصرّف، وتنعته بالرعونة التي لا تطاق،

وتعلن له أنها لا تريد أن تراه أبداً بعد الآن (والدتي تؤكّد أنّ والدي كان يفرض نفسه فرضاً على هذه المرأة المسكينة، التي يبدو أنها أخطأت في المرّة الأولى عن جهل، أو عن عدم تقدير، ثم استغلّ والدي خطأها هذا ليبتزّها ما استطاع. شانتاج! بلا أخلاق! كانت تردّد لصديقتها مريم)، وبينما هما كذلك إذن، بدأ الصبي بالصراخ، فحضر والده على صوته، وفتح الباب عليهما ليجدهما في وضع يبدوان فيه متلاصقين، كان والدي خلفها رافعاً فستانها يحاول أن يأتيها من قفاها، مستفيداً من انشغال يديها بالصبي، وكان الصبي يصرخ مرتعباً من وضع لا يفهم منه شيئاً، فهجم عليهما الزوج بلا وعي، وقبل أن يبلغهما أطلق والدي النار عليه فقتله فوراً، وفرّ معتقداً أنه لم يرَه أحد في هذا الليل الذي كان بدأ يسمك. لكنّ والدتي تؤكّد بالقَسَم، أن كثيرين رأوه يخرج من الحمّام بعد الطلقات مباشرة، لكنّ أحداً لم يُرِدْ زجّ نفسه في قضيّة قد تتحوّل سريعاً إلى قضيّة عائلية سياسية، في وقت كانت فيه الغيوم منذرة بدماء كثيرة، في زغرتا وفي لبنان، بل وفي المنطقة كلّها.

وبعد هذه الحادثة هربت المرأة إلى بيروت، حيث أمضت حياتها في امّحاء وسرّية كاملين، تاركةً وراءها ولدين صغيرين، وانتقل إخوة زوجها إلى العيش في حيّ آخر من البلدة، لأنّ منزلنا (أقصد بيتَ جدّي أهل أبي) كان قريباً من منازلهم، وكان الحيّ عمليّاً حيّنا لغَلَبة أقربائنا فيه.

وكان غضب والدتي يتضاعف حين تبلغ في كلامها موقفَ والدي من المرأة بعد هربها. تقول والدتي إن والدي لم يعد يسأل عنها إطلاقاً،

بعدما دمّرها وحوّل حياتها إلى جهنّم، كأنّه لم يكن يعرفها، كأنه لم يسمع بها، كأنه لم يسبّب لها شيئاً، فلم يفكّر يوماً في السؤال عنها، لمعرفة ما إذا كانت بحاجة لشيء، ولمعرفة كيف تعيش حياتها وعلى أي حال، أو على الأقل من باب الاعتذار. هذا رجل شرّير! كانت تردّد والدتي، يحبّ رؤية الناس تتعذّب.

(أتساءل كيف "تبكي" الآن أمّي والدي القتيل، كيف "ودّعته" الوداع الأخير، هل هي حزينة عليه، هل تشفق عليه، هل أثار فيها مقتلُه جروحَها القديمة، هل تمنّت لو حدث ذلك من قبل، من زمان، بحيث كانت استطاعت بناء حياتها كما تشتهي من جديد؟ بماذا تفكّر والدتي الآن وكيف ترى المرحلة المقبلة، هل تخطّط لشيء؟)

وقد رأيتُ هذه المرأة ذات يوم في بيروت، وكانت تلك المرّة الأولى والأخيرة، وكان ذلك في سنتي الجامعية الأولى، ذهبتُ إلى تلك المدرسة التي كانت تعمل فيها، بقصد رؤيتها وحسب، وليس للسبب الذي صرّحتُ به، وهو أنني أبحث عن عمل كمدرّس، وجلتُ في المدرسة، محاذراً الالتقاء بأحد يعرفني، ومتحاشياً خلق أوضاع تضطرني إلى البوح باسمي، إلى أن استهديت عليها، فوقفتُ أتأمّلها بدون أن تدري، كانت كتلك النسوة الزغرتاويّات اللواتي تأهل بهن ذاكرتي دوماً، نسوة الخمسينيات والستينيات، كانت ما زالت تلبس الأسود السميك، على الطريقة ذاتها، لا يبين منها إلا اليدان والوجه. أردتُ أن أسألها لماذا هي ما زالت على الثياب السوداء، بينما انقضى

وقت طويل على حزنها، لكنّ مخاطبتي لها لم تكن بالأمر السهل. وأذكر أنني في ذلك اليوم قضيت الليل مؤرقاً لا أستطيع أن أغفو، بينما أنا في حوار معها، أسألها وتجيب، وأسألها وتجيب، حتى تأكّدتُ من رواية والدتي المفصّلة عن مقتل زوجها، وسألتُها كثيراً عن تلك المواضيع التي ظلّت تقلق عليّ عمري وأيّامي، سألتها عمّا إذا كان والدي أخبرها عن طبيعة علاقته بوالدتي، قبل زواجهما، وعن قدر حبه لها ومدى تعلّقه بها. وسألتها أيضاً عمّا إذا كان والدي يكلّمها عن أنور الذي كانت والدتي مغرمة به في تلك الأثناء، والذي كان والدي يغار منه حتّى الموت. وسألتها خصوصاً عمّا إذا كان أخبرها عن تلك الورقة التي رماها إلى والدتي من طاقة الحمّام، بلا توقيع، وفيها يعلن لها حبّه. فهذه الأشياء جميعها وقعتْ في تلك المرحلة. وسألتها وألححتُ عليها أن تخبرني، بما أخبرها والدي عن الناحية الجنسية من علاقة والدتي بأنور.

وكم تمنيتُ أن أسألها عمّا إذا كان أخبرها عن ليلته الوحيدة مع والدتي، تلك الليلة الأولى والأخيرة، وأن أسألها أسئلة دقيقة ومحدّدة جداً، إن كان بقي مهتاجاً بعدما اكتشف ما اكتشف من أمر والدتي وعذريتها، أو إن كان هيجانه تضاعف، وبأيّ قوّة عظيمة قد أراق فيها غضبَه أو منيّه، مرّة واحدة وحيدة، مرّة أولى وأخيرة، لكنها لم تكن تعلم شيئاً إطلاقاً عن كلّ ما جرى بعد هجرها البلدة، ولم يكن في استطاعتها إفادتي بشيء، كانت تستطيع فقط أن تقدّر تقديراً ما كان يمكن أن يكون عليه ردّ فعله في مثل هذه الحالة، رغم أنها لم تكن تعرفه معرفة

عميقة، فعلاقتها به لم تدم طويلاً، ولا تكرّرت كثيراً في هذه الفترة القصيرة. مرّات قليلة جداً وحسب: "كان هو في الصيد وكنتُ أنا في السيّارة عائدة من طرابلس، بعدما اشتريتُ أشياءً لطفليّ، وكان الوقت الغروب وأوّل العتمة، فاستوقف السيارة التي أنا فيها، وصعد جنبي على المقعد الخلفي وشلّ مقاومتي فوراً، كانت بالنسبة إليّ لحظة تَخَلّ، وراحت يده تتصرّف بحرّية حيث تشاء من جسدي، وأنا مندهشة مأخوذة بالمفاجأة، ولست موافقة في نفسي ولا ممانعة رافضة في الحقيقة، فكأنّ ما يحدث لي لامرأة أخرى، لكننا كنّا، أنا وهذه المرأة الأخرى، نتشارك اللذة بالدرجة ذاتها من القوّة، وفي اللحظة ذاتها!"

ثمّ تبعها إلى الحمام في المرّة الثانية، فحاولتْ ردّه وطرده، ولكنه قال لها إنها هي التي تُطيل وقت بقائه هنا معها، وإنها هي التي تعرّض نفسها وتعرّضه معها لخطر أن يفاجئهما أحد، وإنها لو قبلت من لحظة دخوله لكان انتهى وخرج.

وأنزلها مرّتين إلى طرابلس في سيارة استأجرها خصّيصاً، كان يراها متجهة إلى الموقف فيسرع نحوها ويلّح عليها بالصعود فتصعد خوفاً من أن يراهما أحد، وفي المرّتين الاثنتين، وفي طريقهما إلى طرابلس، كان يوقف السيارة في طريق فرعيّ، في بساتين الزيتون، ويجبرها على أن تستسلم له ليفعل فيها ما يريد.

قالت، وهذا بالضبط ما كانت تقوله والدتي، إن الأمر بينهما ما كان

سوى خطأ من جانبها وسوء تقدير. كانت لحظة تَخَلّ. وقد استطاع والدي ابتزازها.

"جهل!" كانت تقول والدتي.

وبعد رحيل هذه المرأة عن البلدة بأكثر من سنة بقليل (يُقال إنها خرجت من الحمّام وهي تُوَلول، ودخلت إلى بيتها حيث وضعت ولدها على سريره، واختفت!) كان زواج والدي من والدتي، وكانت ليلتهما الأولى. وبعد هذه الليلة الأولى بقليل، بأيّام ربما، أو بأسابيع على أبعد تقدير، (أو ربما قبل، من يدري؟) بدأت علاقة والدي بامرأة أخرى ليس لها أولاد، تكبره كالأولى ببضع سنوات. وكان الشائع أن سبب عدم إنجابها يكمن في زوجها وليس فيها. وكانت هي حين تُسأل عن السبب، تجيب إجابة يجدها أناس كثيرون قابلة للتأويل. كانت تجيب: "الله العاطي!" وكان البعض يرى في هذه الإجابة إشارة من المرأة إلى أنّ "العطل" في زوجها. كان مضى على زواجها ثلاث أو أربع سنوات، عندما بدأ والدي بمعاشرتها، وبعد حوالى سنتين من علاقته بها حبلت وأنجبت بنتاً، ولم تحبل مرّة أخرى، مما عزّز الاعتقاد بأن هذه البنت من والدي! كانت تصغرني إذن بحوالى سنتين لا أكثر. لم أفهم أول الأمر لماذا اضطربتْ والدتي كلّ هذا الاضطراب، عندما دخلتْ بيتنا هذه الصبيّة ذات يوم، مع شلّة من الأولاد. صارت والدتي كأنّ بين قدميها أفعى سامّة مرتعبة، صارت محتارة كيف تتخلّص منها. فهمْتُ لماذا في ما بعد. ومرّة وكنت في العشرين من عمري وكانت هي في الثامنة

عشرة تقريباً، صرنا نلتقي، وقد أعجبتُ بها، كنت أراها بهيَّة ومضيئة ومؤنسة. كنت ألتقي بها سرّاً، قد شجّعني على لقائها أنها أزالت من ذهني، منذ اللقاء الأوّل، كلّ ما علق به مما أشيع عن بنوّة والدي لها، لشدّ ما كانت تعاملني كشخص آخر، لكن بحبّ كبير. كانت خالية الذهن تماماً من هذا الذي علق في ذهني، أو أنها كانت تعتبر هذا الأمر مجرّد شائعات وحسب، ليست مبنيّة على واقع. علمت أمي أننا ذهبنا معاً إلى السينما في طرابلس، المدينة المجاورة، رغم كل الاحتياطات التي اتخذناها، ورغم التزامنا الدقيق بالخطة التي وضعناها ونفّذناها بدون أي خطأ: ذهبتُ أوّلاً إلى موقف السرفيس، وتعمّدتُ الركوب في سيارة سائق لا يعرفني، ولا أعرف عنه سوى أنه سائق سرفيس على خطّ زغرتا طرابلس، كان بحاجة إلى راكبين اثنين فقط لينطلق، وكان الاتفاق بيني وبينها أن تراقب السيّارة، وأن تصعد إليها فور أن يصبح فيها أربعة ركّاب، فتكون هي الخامسة، فيكتمل بها العدد، فينطلق السائق فوراً، وهكذا لا تُديم بقاءها في السيّارة طويلاً، معرّضة نفسها أن يراها أحد نازلة إلى طرابلس بلا رفيق من أهلها أو من أقربائها، لكن لسوء الحظ جاء راكبان دفعة واحدة، رجل وزوجته، وامتلأت السيارة وكاد السائق ينطلق، لكنني ترجّلت فوراً مدعياً أنني نسيت شيئاً، ثمّ أعدنا المحاولة مرّة ثانية، فنجحت محاولتنا. في طرابلس كنا نبتعد عن موقف سيّارات زغرتا ثم نمشي معاً إلى السينما. قمنا بذلك عدّة مرات، ثلاثاً أو أربعاً، ومرّة امتلأت السيّارة التي كنت فيها وحدي دفعة واحدة، وما استطعت الاعتذار، فانطلقت السيارة وأنا بداخلها يتآكلني الغضب، وما إن وصلتُ إلى طرابلس حتى ركبت في

سيارة عائدة. إلى أن علمتْ والدتي بالأمر ذات يوم لا أدري كيف، فكانت الكارثة! كانت الكارثة فعلاً! كادت تبتلعني، تقتلني، تأكلني من الغيظ. ظلّت تصرخ حتى التمَّ علينا الجيران، وكانت تصرخ وتقول كلاماً لا تذكر فيه موضوع غيظها، بحيث إن الجيران الذين حاولوا الاستيضاح، لم يفهموا شيئاً سوى أنني شخص عنيد، لا أتعامل بجدّ مع الأمور المتعلّقة بمستقبلي. "قليل الفهم!" هذا ما كانت تردده بشكل خاص، عندما كانت تُضطر إلى الإجابة. وكانت نتيجة جنون والدتي أنني حُرمت من اللقاء بهذه الصبيّة، التي ظللتُ أجترّ ذكرياتي معها بعد ذلك مدّة سنين طويلة، وظللتُ أحلم بلقائها. أعاد إليَّ ردّ فعل والدتي هذا الشديدُ العنف "الظنون" من جديد، وأعاد إليَّ ما كان يُقال عن بنوّة الفتاة. وتأكّدت أن والدتي مقتنعة بالأمر وأنّ ما كانت ترويه لمريم عن الموضوع لم يكن كلاماً وحسب. كنتُ بالنسبة إليهم أقيم علاقة مع ابنة والدي. وأعادني كلّ هذا إلى نفسي، إلى الأسئلة المقلقة المؤذية الموجعة، التي كنتُ بدأت في تلك الفترة أقاوم أثرها بنجاح. واللافت أن هذه الفتاة لم تعد تتصل بي منذ انفجار والدتي بي، ولم تتصل حتى للاستيضاح، أو للاتفاق على الافتراق، كأنها أبلغت بالحدس رسالة والدتي، أو أن خبر انفجارها (انفجار والدتي) بلغها، أو أنّ والدتها أوضحت لها شيئاً ما، لا أدري. بل لم أعد ألتقي بها في الطريق. وقد تزوّجتْ بعد أشهر على هذه الحادثة من مغترب، وهاجرت معه إلى أوستراليا ولم تعد، وانقطعت أخبارها عني منذ ذلك التاريخ.

لم تهدّدني والدتي يوماً إطلاقاً بوالدي، كما تهدّد الأمهاتُ أولادَهنّ

بوالديهم، عندما يبالغ هؤلاء الأولاد في عصيانهم. إلا تلك المرّة! قالت لي إنها ستشكيني إلى والدي، بلا تحديد السبب، قالت: "سأشكيك إلى والدك!" فقط. وكان تهديدها لي بوالدي مفاجأة كبرى بالنسبة إليَّ، وكان حدثاً توقّعت بعده أن أرى علامات أخرى طيّبة غيره، على هذا التطوّر الذي لا بدّ استجدّ في علاقتهما، لكن توقّعي لم يكن في محلّه، وكان انتظاري بلا نتيجة.

كان أولاد عمّي يقولون لي أحياناً على سبيل الفخر بعمّهم – والدي – إنني لست ولداً وحيداً، وكانوا يقصدون أنه عندي أخت. وأذكر أنّ عمّي سمع ابنه مرّة يقول هذا، فصفعه صفعة رمته أرضاً وأدْمَتْ فمَه، فاختفت بعد ذلك كل إشارة إلى الأمر بيننا. لكنّ هذه الرغبة القوية في كتمان هذا الأمر وعدم الكلام عليه، لا يعني أنهم، أقصد أعمامي، لم يكونوا فخورين به في أعماقهم، أو أنهم كانوا ضدّه، فمرّة أطلق عمّي رصاصة من مسدسه حتى يُحذّر أخاه، عندما رأى زوج المرأة هذه يعود إلى البيت، على غير عادته في مثل هذا الوقت. كان يعرف أنّ أخاه هناك، كان دائماً يعرف متى يكون أخوه هناك. وبعد أن أطلق هذه الرصاصة بقليل، مرّ والدي به، وشرب عنده فنجان قهوة، بدون أن يأتيا على ذكر الموضوع، لا صراحة ولا مواربة، وكأن الموضوع أصلاً لا وجود له حتّى يجري الكلام عليه.

وكانت والدتي على علم بدقائق هذا التواطؤ بين الإخوة، وكانت تدرك أسباب فخرهم بأخيهم، وكانت تغتاظ لذلك أشدّ الغيظ،

وكثيراً ما ردّدت لي في مناسبات كهذه أنّ أعمامي يثيرون فيها رغبة في التقيّؤ! وكانت لا تتمنّى لي أن أكون مثلهم، لكنها كانت تستدرك وتضيف "لكنك منهم!" فأسكت غير قادر على الكلام. لم يكن في استطاعتي أن أقول لها إنّي في قلبي لا أحب أعمامي لأنهم يحتقرونني! كنت أعتبر أن هذا الشعور معادٍ لوالدي فأخفيه تحت سابع أرض.

لدى أعمامي أسبابهم في حبّ أخيهم واعتباره قدوة لهم، وهذا شأنهم لم أفكر يوماً في مناقشتهم فيه، لكن أن يفرضوا عليَّ قيمهم، وأن يجبروني على تمثّلها، حتى أصبح "ابن أبي" بالنسبة إليهم، فهذا ما لا أقبل به. فأنا لا أؤمن أوّلاً بهذه القيم أصلاً، ولا أعتبر حاملها جديراً بالتقدير أو بالاحترام، فكيفَ إذن أقبل بأن تكون من الصفات التي يجب أن أتحلّى بها دائماً؟

لا! أبداً!

أنا لست كوالدي بالتأكيد، أنا لا تجتمع فيَّ الصفتان، ولم يُروَ عنّي أنني أنجبت أولاداً من نساء متزوّجات استقْوَينَ بي، وإنْ في حساباتهن الخاصة، على أزواجهنّ، ولا قتلتُ ولا ثأرتُ ولا صلت ولا جلت. ولم أتزوّج امرأة نمتُ معها مرة واحدة وحيدة، كانت الأولى والأخيرة، ليلة العرس فقط، لأني وجدتها ليست عذراء، وأدركتُ أنّ أنور الذي أكرهه هو من سبقني إليها، إلى هذا المكان الذي حلمت بأن يكون لي وحدي، وبألا يسبقني إليه أحد، وألا يلحقني إليه أحد، ولم أجرؤ

على التصريح بذلك، بأسباب مجافاتي لها على مدى الحياة، لشدّة ما ألححتُ عليها من قبلُ طوال سنوات، واحتَلْتُ، لترضى بي زوجاً لها، فتركتها في بيتي خوفاً من فضيحة ما، بل ربما خوفاً من أن يدخل بعدي إلى هذا المكان أحد غيري، لكنني لم أعد إلى الاقتراب منها إطلاقاً بعد المرّة الأولى ليلة العرس! ليلة حبلتْ منّي بصبيّ عاش قسماً من حياته (فقط؟) كابوسَ ألا يكون ابنَ والده – أبيه، وعاش طَوال حياته ثمرةً غريبةً غير مشتهاة من غصنها.

ولا أعتقد أن أعمامي، من قلّة الدراية بحيث إنهم يتوقّعون مني أن أكون كوالدي. فأنا لا أشبه والدي بشيء، إلا بما حملتُه منه بحكم قوانين الوراثة البيولوجية. إنّ أعمامي أدرى الناس بذلك، فعلى ماذا يراهنون فيّ إذن؟!

لن أثأر له!

وإذا كانوا يتوقّعون مني أن أثأر، فإنهم مخطئون خطأً لا يمكن وصفه. فهل يمكن أن يكونوا على هذا القدر من الخطأ؟ هل يجهلونني إلى هذا الحد، إلى حدّ العَمى؟ أتساءل من باب التساؤل وحسب، من باب تساؤل العارف، فأنا أعرفهم بقدر ما هم، يعرفونني، بل ربما أكثر بكثير، بل بالتأكيد أكثر بكثير. لم يحبّني يوماً أعمامي، و لم أشعر يوماً أنهم عاملوني بالحنان الذي يعامل به الإنسان ابن أخيه.

لن أثأر له! هذا أمر محسوم.

أمّا ما سأقوم به وفاءً له، كوالد وأب، فهو الادعاء على القاتل. سأدّعي على القاتل فهذا حقّ له عليَّ، فما هو رغم كل شيء، إلا والدي، وما أنا رغم كل شيء إلا ولده. صحيح أنّه لم يكن أباً مثالياً كما كنت أتمنى أن يكون، لكنه لو كان مثل آباء آخرين، لظلّ يفخر بلا توقّف بأنه علّمني علوماً عالية حتى أصبحتُ أستاذاً في الجامعة، ولكان باستطاعته أن يفخر أيضاً، بأنه منعني من حمل السلاح والتعامل به، رغم أنّ أوضاعنا والمشاكل التي كنّا فيها كانت تجبرنا على اقتناء السلاح والاعتياد عليه، كأنّه سكين مطبخ أو صحن أو ملعقة.

علّمني، تابعت دراستي بفضله. صحيح أنّه لم يكن يهتمّ بأمري عن قرب، لكنّ بقائي في المدرسة، كان لا شكّ إرادته، ثمّ كذلك دخولي الجامعة. وكان مستعداً لا شكّ، للتضحية بكل شيء من أجل هذا. كان منذ بدأت أذهب إلى المدرسة، يعلن رغبته في أن أتقن اللغة الفرنسية، اللغة الأجنبيّة السائدة الأولى في البلاد، في تلك الفترة (لم يكن مضى بعدُ وقت طويل على انسحاب فرنسا، الدولة المنتدَبة، من لبنان) لأنه بدون الفرنسية، كما كان يقول، لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى مكان. اشترى لي قاموساً (عربي فرنسي) ما زلت أحتفظ به حتى اليوم. اشتراه بمبادرة منه، ولم أكن بعدُ بحاجة فعليّة إليه. وكانت هذه المبادرة مفاجئة لي تماماً. فاجأتني بقوّة وحفرت في نفسي ذكرى لا أنساها. قال لي وهو يمدّ يده ليعطيني إيّاه:

"لا تتركه!"

فانربط لساني، و لم أدرِ ما أجيب، فما يعني هذا الأمر أو هذه النصيحة، ألا أتركه، وهو بين يديّ كقنبلة ستنفجر بين لحظة وأخرى، و لم أكن أدري ما ضرورته حقيقةً. وكان والدي وهو يعطيني إيّاه واثقاً من مبادرته، وهو ما جعلني أظنّ أنه يعرف ما يقول، وأنه عليَّ لا شك القيام بهذا الجهد الدائم، أي أن أبقى طوال الوقت منكبّاً عليه، أدرس كلماته، وأحفظ العلم الذي فيه، وأتأمّل صوره وأعرف مغزاها. وفي اليوم التالي أخبرتُ أستاذي في المدرسة برغبة والدي هذه، وبحْت له بهواجسي، فقال لي إن القاموس يُستعان به فقط، عند اللزوم، وإنّ هذا كل شيء، فنقلت هذا الجواب فوراً إلى والدي، فأجابني "بالتأكيد، إنه صديقك على مرّ الأيام."

ثم إن والدي منعني منعاً باتاً من حمل السلاح، الذي كنت أعرف أين مخابئه في البيت. كان يطلب منّي دائماً أن أجلبه له من أجل صيانته، كان ينظّفه ويشمّسه ويزيّته بشكل دوري، وكان يقول لي رُدّهُ إلى موضعه وانسَ أنه هناك!

كان والدي بالفعل يستطيع أن يفخر بكل ذلك، لكنه كان أباً سكوتاً، لا يعبّر خصوصاً عن عاطفة. كان لا يجيد ذلك. لكنني لم أكن بحاجة للتعبير من قبله، حتى أدرك هذه الأمور. كنت مدركاً لها. فما هو إلا

والدي، وما أنا إلا من صلبه ومن لحمه ودمه.

(لذلك كان طبيعياً بمعنى ما، أن أحسّ هذا الإحساس الغريب تجاه أشياء بيتي، عندما عدت بعد أن بلغني خبر مقتله. هذا الإحساس الغريب بانتقال عدوى موته إليها. وكان طبيعيّاً أيضاً، أن يجعلني هذا الإحساس أقول في داخلي وفي أعماقي، بلى! إنه والدي الذي مات! وأردت عند ذاك إجابة صديقي عن سؤاله، بأنّي متأكّد من أن الذي قُتل هو والدي بالذات ولا أحد غيره. كان إحساساً غريباً ومطَمْئناً في الوقت نفسه. هذه مفارقة كبرى بالتأكيد، لكن الحياة ما كانت درباً سهلة ومستقيمة دائماً).

سأقدّم دعوى على القاتل، هذا حقّ لوالدي عليَّ، ولن أتنازل عن هذه الدعوى، مقابل تعويض مادي، مقدّمةً للمصالحة بين العائلتين، مهما مورست ضغوط عليَّ. وسأعلن أمام الناس جميعاً، أنني لست مسؤولاً عمّا قد يقوم به أعمامي وأولادهم، أو عمّا يقوم به أحد غيرهم بدافع منهم، فإنهم مسؤولون عن أنفسهم. هكذا أكون قد أصبتُ عصفورين بحجر واحد، وقمت بما يمليه عليَّ ضميري كابن وكمواطن. حان الوقت أخيراً لتكون السيادة للقانون، فهذا أكثر إنسانية من سيادة العادات الوافدة إلينا من أزمنة ما قبل التاريخ.

أنا رجل أحب كوني متمتعاً بحسّ مدنيّ قويّ.

أنا رجل أحب كوني متمتعاً بحسّ إنسانيّ قويّ.

أنا من الناس الذين إذا ما ذُكر أمامهم أن الشمس تتدنّى حرارتُها، اقتصَدوا في استعمال الماء الساخن، إسهاماً منهم في ديمومة السخونة على الأرض ما أمكن، علّ الوقتَ يطول، فيتسنّى للبشرية أن تجد وسيلة تتفادى بها الكارثة. فكيف سأثأر بيدي والدي وممن؟ أيمكنني أن أخبّئ مسدساً في خصري وأن أكمن عند زاوية، وأنتظر أن يمر القاتل، فأسحب عندها المسدس من خصري، وأطلق النار عليه مرّة ومرّتين وثلاثاً؟ وإذا لم أوفّق بالقاتل نفسه لأنه شديد الحذر عادة أقتلُ قريباً له؟ أيمكنني القيام بذلك؟ ألم ننتقل بعد إلى عصر الدولة الحديثة، دولة القانون؟ أيجوز لي أو لأيّ كان غيري، أن يحصّل حقّه بيده في هذا القرن الحادي والعشرين؟

لا أخفي أنني أقول هذا الكلام المتمدّن، رغم المشاعر العاتية التي تنتابني، بأنّ اليد التي قتلت والدي، هي يد قاسية وظالمة. لقد قتلَتْ هذه اليدُ والدي الذي أنا من صلبه، أي من لحمه ودمه! فأنا حاقد على قاتله ولست غافراً له، بل أكثر من ذلك، فإني لا أتمنّى إطلاقاً أن ألتقي به، وخصوصاً الآن، لأنني لا أضمن أن أتصرّف كما ينبغي أن يتصرّف شخص مثلي. قد يفور دمي فأنقضّ عليه فأقتله. قد يفور دمي – نعم قد يفور! فأنا من والدي كما الشيء من الشيء، وكما الغصن من الجذع، وكما الشجرة من الأرض. فماذا لو كان له أن يشهد الآن أنني لن أثأر له؟ سوف يغضب كثيراً، وسوف تُعْتم الدنيا في وجهه،

وسوف يتمنّى أن يكون حيّاً ولو دقيقة واحدة، ليقتصّ منّي.

كيف كان اقتصّ مني والدي وأبي، وهو الذي لا أذكر أنه ضربني يوماً. لم نكن "رفاقاً"، كما هي الموضة أن "يتصادق" الأب والابن، وأن يتصارحا في أمور كثيرة، و لم يكن يهتمّ بأموري عن قرب، لكنه لم يكن قاسياً معي أو عنيفاً. أمّا ما كنت أشعر به في أعماقي من عنف وقسوة، فكان نتيجة هذا الصمت المتوتّر، القائم بيني وبينه كحائط عال وسميك.

أنا لا أدري الآن بالفعل، ما يكون ردّ فعله على رفضي الثأر لدمه، بل أتساءل ما إذا كان توقّع منّي ذلك، هو الذي كان يريدني أن أتعلّم، والذي منعني من حمل السلاح.

يا الله!

لم يكن ينقصني إلا هذا لتكمل معي؟ أن يُقتل أبي "لأسباب ثأرية" كما تقول الجريدة!

بل أن يصلني الخبر بعد يومين على مقتله، أي غداة جنازته ودفنه!

لماذا لا تتصلين بي يا سلوى، لماذا تأخّرت هذه المرّة في الاتصال بي، لماذا لست اليوم راغبة في لقائي، لماذا تمانعين اليوم بالذات في الاتصال

بي، لماذا اخترت هذا اليوم بالذات لتلعبي لعبتك التي لا تريدين التخلّي عنها؟ لو تستطيعين اليوم معرفة المنفذ إليّ لتجعليني أخبرك، لتجعليني أبادلك أخبارك بتاريخ! ستدهشك أخباري يا سلوى، سيُدهشك تاريخي، وسترين أنّ عذابك لم يكن شيئاً قياساً إلى ما عانيت.

أم أنك قرأت الخبر يا سلوى في الجريدة، وفاجأك أنني أنتمي إلى وسط ما زال الثأرُ فيه قيمة مقدّرة، فانسحبت من حياتي فوراً بلا إشارة أو إنذار.

سلوى تقرأ الجريدة كلّ يوم، هذه عادة عندها، وتقرأها كلّها تقريباً، تبدأ بالصفحات الداخلية، بالأخبار المحليّة والمتفرّقات، ثم تعود إلى الصفحة الأولى والعنوان الرئيسي.

قالت لي سلوى مرّة أنتم أهل الشمال (تقصد الموارنة) ما زلتم في الجاهليّة لم يمرّ عليكم الإسلام! ولا المسيحية بالطبع! وأذكر أنني أجبتها على سبيل المراعاة والنكتة أننا نحن، أهل الشمال، أصلُ الإنسان، لا فصيلة القرود التي تكلّم عليها داروين! فانبسطت كثيراً من هذا الكلام، وضمّتني إليها بذراعيها مكافأة لي على هذه الروح الساخرة، فسلوى كوالدتها لا تحبّ أهل الشمال بشكل عام، ويسرّها أن أتكلّم عليهم بحياديّة، وتُسرّ كثيراً كل مرة أذكر فيها مساوئهم، أو أقول شيئاً عنهم تعتبره سلبيّاً. وأكثر ما يُزعج والدتها فيَّ، كوني من أهل الشمال.

عندما قلت لها إن أهل الشمال أصل الإنسان، قالت منتظرةً منّي المزيد من هذا الوزن الثقيل ضدّهم:

- وأصلُ أهل الشمال؟

قلت:

- المعزى!

أصل أهل الشمال المعزى! وهذا كان سبب سكنهم في هذا الجبال العالية، لا الهرب من الاضطهاد الذي تعرّضوا له، فليس غير المعزى قادراً على السكن في هذه الجبال الصعبة.

بدا لي أن سلوى كانت تسمعني أقول هذا الكلام بأذنَي والدتها. كانت تنصت إليه بانتباه حادّ، وتحفظه حرفاً حرفاً لتنقله إليها - إلى والدتها - بلا أن يضيع منه شيء. كانت تحبّ كثيراً، بل تحلم، أن تقبل بي والدتها قبولاً كلياً، كان يريحها ذلك، وكانت تعتقد أنه يمنحها مزيداً من الحريّة في علاقتها معي.

وكانت سلوى تحبّ أن تسمع منّي هذا الكلام، لأنها كانت ترى فيه مسافةً من جانبي تجاه أهل الشمال وبُعداً، وبالتالي قرباً منها وهي ما زالت ثابتة في مكانها بين أهلها.

أمّا وقد قرأت الآن خبرَ هذا الحادث، الذي لا بدّ محا المسافة التي تحبُبُني إليها، فإنها قد "ضربت فرام" فجأة، وبطريقة لا إرادية، فتوقّفت عن الاتصال بي بلا أن تقرّر ذلك بشكل واع ومدروس. أكيد قالت في نفسها: "ما لي ولهؤلاء الناس! ما لي ولِلثأر وهمومه ومآسيه! لا يجمعني شيء بهذا العالم البعيد، فَلأبْقَ بعيدة عنه، فأنا لا يمكنني أن أعيش في خوف دائم على زوجي وأولادي، في خوف عليهم أن يُقتلوا، وخوف عليهم أن يُضطروا إلى القتل."

يحقّ لسلوى بالتأكيد ألا تحبّ هذا العالم، وألا تكون جزءاً منه، ويحقّ لها ألا تقبل بلبس السواد حزناً أكثر أيّام حياتها، أو أن تمضي حياتها أو قسماً منها منتظرة زوجها أن يخرج من السجن، أو أن يعود إلى البيت حين تسنح له الظروف فقط، أي حين تكون عودته آمنةً، أو تُسرع للاستفسار عن طبيعة الطلقات النارية التي سمعتها، وعمّن أطلقها وعلى من أطلقت، ويحقّ لها أن ترفض أن تنقسم الأمكنة بالنسبة إليها إلى ثلاثة أقسام، قسم آمن وقسم عدوّ وقسم حَذِر، وهي التي تحبّ الحياة، وتحب التنقّل والتنزّه والسفر، على قَدميها أو في السيارة، وحدها إن لم تجد رفيقاً، وهي التي تفاجئني من وقت لآخر بقولها لي "كنتُ اليوم في صورا"، أو "كنت في طرابلس!"، وتجيبني دائماً عن سؤالي "لماذا أو ماذا كنت تفعلين هناك"، تجيبني بـ "هيك! طلع عَ بالي!" ومرّة أخبرتني أنها علقت في ضهر البيدر وهي عائدة من البقاع، لأن الطريق انقطعت بها أثناء العاصفة الثلجية. قالت إن الثلوج كادت تغمر السيّارة حتى زجاجها! وقالت إنها لم تَخَفْ،

وهي على كل حال لم تعد تخاف بعدما صار معها هاتف خلوي. قلت لها لماذا لم تتصلي بي بهاتفك هذا وأنت عالقة هناك، قالت لماذا أتصل بك وأنت لا ينشغل بالك عليَّ! ثمّ قالت لو علقتَ أنت فهل كان جاء على بالك أن تتصل بي؟

هل يمكن لسلوى اتخاذ هذا القرار بقطع علاقتها بي، دون أن تسمعني. دون أن تعرف منّي ما جرى وما رأيي فيه. هل أصبحتُ أنا المهدّد بالهجر وسلوى المهدَّدة؟ ألذلك لم تتصل إذن؟ فإذا كانت لم تتصل لهذا السبب حقيقة، فالمسألة منتهية، أقصد أن علاقتنا انتهت، وهذا قرار منّي أتخذه الآن، وعليَّ مجابهة الوضع وحدي، بدون الاتكال على أحد، فلن تأتي النجدة التي كنت أنتظرها، وما عليَّ سوى المبادرة فوراً بلا إبطاء: يجب أن أذهب فوراً إلى زغرتا، وما من مهرب من ذلك، وكلّ انتظار مراوغة. ويجب أن أذهب بالتاكسي، لأنني لن أستطيع قيادة سيارتي بنفسي، فلن يجمع بالي ولن أستطيع التركيز، رغم أني أحبّ هذه السيارة التي لم يمضِ وقت بعد على شرائي لها، شهران على الأكثر. مرسيدس 300 موديل الـ 93 "فول"، دفعتُ ثمنها عشرين ألف دولار أميركي، كان معي منها عشرة واستدنت الباقي. ليتني أعثر على أحد يرافقني فيقودها هو، حتى أستطيع العودة بها، لأني أثناء العودة أكون قد رقت قليلاً وهدأت. هي في أمان على كل حال من السرقة أو من أن يصدمها أحد، في حال بقيت هنا، لأنني مشترك شهريّاً في موقف محروس ليل نهار.

ليس من العيب التفكير في هذه الأمور في هذا الظرف، لأن الحياة قاسية، وكسبَ القرش صعب، ثمّ إني عمليّاً لا أفكّر في هذه الأمور تفكيراً، فما هي إلا خواطر تعبر بلا استئذان. ثمّ إني على استعداد للتضحية بهذه السيّارة، بل وبكل ما أملك، لو أن في هذه القضية فائدة.

لن أستطيع قيادة سيّارتي بنفسي، هذا أمر أنا متأكد منه، ولا أرى أحداً من الأصحاب أستطيع أن أطلب منه مرافقتي لقيادتها، لأن طلباً كهذا لا يُطلب من أي صاحب كان، ففي الأمر تعرّض للخطر، مهما كان هذا الخطر ضئيلاً، وفيه "زَجّ" في قضيّة ليس من الآدميّة إطلاقاً أن "يُزجّ" فيها أحد غير معنيّ بها، بشكل أو بآخر.

يجب أن آخذ تاكسي مهما بلغت كلفته، فهذا أمر محسوم. فمن غير المنطقي الذهاب في السرفيس أو في الباص، فأعرّض نفسي بين محطّة وأخرى، للالتقاء بأشخاص من البلدة على علم بالأمر، فيسألونني ويعزّونني أو يتعجّبون أو أو... لا!

آخذ تاكسي! نقطة.

ثمّ إن التاكسي أسرع بكثير من الوسائل الأخرى، خصوصاً في الليل حيث يقلّ الركّاب، ويطول الانتظار حتى تنطلق سيّارة السرفيس أو ينطلق الباص.

ويجب أن أذهب فوراً لأنّ بقائي هنا لن ينفعني، ولأنني سأظلّ فريسة أنواع الأفكار الغريبة العجيبة التي تنقضّ عليَّ لتفترسني، وتحرق جوفي. ولكن كيف أذهب إلى زغرتا قبل أن أتصل بأحد من هناك أتشاور معه، كيف أذهب ولا أعرف ماذا ينتظرني، وما حدث زلزال.

يا الله! ما زلت أراوح مكاني عاجزاً عن المبادرة! فماذا لو اتصلت بأحد الأصدقاء هناك، هؤلاء الأصدقاء القدامى الذين لم يتصل بي أحد منهم ليخبرني، أو ليعزّيني على الأقل، لماذا؟ هذا يزيد الأمر غرابة أيضاً.

إنها قضيّة كبرى! أنا لست مخطئاً في التقدير. بل هي قضيّة أكبر مما تصوّرت حتّى الآن. أكبر بكثير.

إنها قضيّة كبرى فما هي؟

قُتل والدي و لم يَتّصل بي إذن، إضافة إلى أهلي، أحد من أصدقائي القدامى، رفاق الطفولة، رفاق الطرقات الموحلة والأزقة الضيّقة والحيطان الرطبة! لم يتصل بي أحد منهم فهذا أمر خطر فما هي القضية. شو القصة؟ إنّ دماغي يغلي من جديد ويدور، فَشُو القصّة؟ ليتني لم أشرب حبّة مهدّئة للأعصاب عندما سمعت بالخبر، كنت شربتها الآن أفضل، فإنّ دماغي يغلي الآن أكثر من أي وقت مضى. لم تجئني مخابرة واحدة من أحد، ونحن الآن في اليوم الثالث على الحادثة،

وأي حادثة؟ مقتل والدي. فوالدي قتل قتلاً، و لم يمت ميتة طبيعيّة في عمر الموت الطبيعي. فهل قتله أعمامي أو أحد منهم، مما خَلَق حرَجاً عند الناس فانسحبوا إلى أنفسهم، دون أن يقوموا بواجبهم في العزاء؟ فهل ضعضعتْ هذه الجريمة نُظُمَهم، وخرجت عن سياق ما جرَوا عليه في مثل هذه الحالات، فاضطربوا وحاروا في ما يفعلون وفي ما لا يفعلون، وحال هذا الوضع المستجدّ الغريبُ دون أن يمارسوا تقاليدهم في العزاء؟

ولكنّ الجرائد جميعها تقول إن القتل جرى على ساحة التل، في وضح النهار عند الظهر، وإنه كان لأسباب ثأريّة. ولكن ما همّ ما تقوله الجرائد، نقلاً عن تقرير قوى الأمن الداخلي، فليس من صحافيّ كان هناك، وليس من إضافة على الخبر الوارد في التقرير، من أي جهة أو مصدر، ثمّ...

ثمّ ما دخلُ هذه التقارير بالذي يجري فعلاً على الأرض؟ فلا أحد يبوح بما رأى أو بما سمع، فنادراً ما شهد شاهد في قضيّة ثأر، وإذا ما حدث ذلك فبالاتفاق في ما بين المعنيين من الجهات الثلاث، أقصد الفئتين المتناحرتين والفئة الثالثة الداخلة في موضوع تخليص القضيّة. فالخوف والشعور بعدم الجدوى، والرغبة في عدم التورّط، والحياء، كل ذلك يمنع الناس من الشهادة.

نعم! نعم! قلتُ الحياء.

فكم من الناس لا يريدون نشر الغسيل الوسخ على السطح، لئلا يراه الآخرون، القريبون منهم والبعيدون. الستر أحلى.

ما زلت إذن في مكاني، لم أتقدّم خطوة واحدة، بينما دماغي يتعدد بسرعة خطيرة، ويذهب في كل الاتجاهات المختلفة والمتناقضة، في الوقت الواحد.

دماغي يدور على نفسه ملايين المرّات في اللحظة الواحدة، فكيف يمكن أن يدور دماغ على نفسه؟ هذا كلام. فأنا بحاجة إلى أن أهدأ، كدت أقول أنا بحاجة إلى حبّة مهدّئة أخرى.

فهل يمكن أن يكون أعمامي هم القتلة والمتآمرون؟ لكنْ لماذا؟

لست أرى داعياً عندهم لذلك. كانوا يُحبّونه ويحترمونه كثيراً، كان أخاهم الأكبر بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة عندنا، وكانوا يجرون على خطاه يتبعونه ويطيعونه، ويسألونه في كلّ كبيرة أو صغيرة، ولا يقطعون ولا يربطون إلا برضاه وموافقته، وكان هو في الحقيقة "شيخ القبيلة" بينهم، حتى قبل وفاة والدهم جدّي، وكانوا على اطلاع على أموره كلّها، وحتى العاطفية الخاصة منها، وكان لهم رأي فيها أيضاً، كما كان لهم رأي في تصرّفه تجاه والدتي، عندما كان يحبها قبل أن يتزوّجها وكذلك بعد الزواج. ربما لم يصرّح لهم بما كتب على

الورقة، التي أرسل أخاه الأصغر ليلقيها إلى والدتي، عندما كانت صبيةً تتحمّم في حمّام بيتها، لكنهم كانوا يعرفون السبب الذي أدى إلى الشرّ الكبير، بينهم وبين أنور وأقربائه، في ملعب المدرسة، كانوا يعرفون السبب وإن غابت عنهم بعض التفاصيل، كانوا يعرفون أنّ أخاهم يحبّها وإن لم يصرّح بهذا الحبّ، وكانوا يعرفون أن بينها وبين أنور شيئاً، ما، وكانوا يعرفون أنها ميّالة إلى أنور وأنها لا تحبّ أخاهم، وكانوا يعرفون أنّ أخاهم يغضبه كثيراً هذا الوضع. رأوا ذلك بسرعة، بل من أوّل بدايته، وقالوا له بلا تردّد ما كانوا يفكّرون به، بصراحة كليّة، بل قالوا له، حين تمّ الاتفاق بينهما على الزواج، إنها لا تصلح أن تكون امرأته وأم أولاده، لأنها ليست من النوع المناسب له ولطريقة حياته. "ليست لنا!" كانوا يقولون له. "إنها فتاة جميلة ومتعلّمة لكنها ليست لنا!" "إنها تناسب غيرنا لكنها لا تناسبنا نحن!" "إنها تصلح لغيرنا لكنها لا تصلح لنا نحن!" لكنه كان مغرماً بها، غير قادر على إجراء هذه الحسابات التي كان يجريها أخوته. كانت حساباته أخرى.

طلب من أخيه الأصغر أن يُلقي الورقة من طاقة الحمّام، بلا أن يطلعه على مضمونها. كانت والدتي تتحمّم. كتب عليها عبارة واحدة، قال:

"البسي غداً للمدرسة فستانك الأصفر!"

ولم يوقّع عليها، ولم يترك أثراً يمكن أن يستدلّ به عليه. كان والدي

يفترض أن والدتي ستدرك فوراً مَنْ مُرسلها، وأنها ليست بحاجة لأثر منه حتى تستدلّ عليه. كان متأكّداً من أنها مدركة تماماً لحبّه لها، وخصوصاً أنه ألمح لها عن عواطفه مرّات عديدة، و لم يترك مناسبة إلا استغلها ليقنعها بأنه جدّ مفيد لها، بل ضروريّ. وكان في الوقت نفسه يدرك الكثير عن ميلها لأنور، وعن اهتمامها بأموره، ثم عن علاقتها به، التي بدأت تنشأ، أي التي بدأت تأخذ أشكالاً أكثر ملموسية.

كان يعرف كل شيء عمّا بين والدتي وأنور. لم تكن تخفى عليه إشارة مهما كانت تافهة غير ذات معنى. كان يدرك ما يجري بينهما بحاسّة ما، شديدة النفاذ.

كتب والدي هذه الرسالة، بعدما أحسّ أن العلاقة بين والدتي وأنور ستتطوّر إلى الملموس، لأنها كانت حتى تلك اللحظة تقتصر على النظر والإعجاب، وعلى الوجود في المكان الواحد وفي الوقت الواحد، وعلى الاستجابة لرغبات الآخر بشكل صامت وغامض، وما شابه من أشياء تكون بين اثنين على عتبة البوح. أراد والدي إذن بهذه الرسالة قلبَ الطاولة، وتفجير الوضع برمّته قبل أن يصبح أمراً واقعاً. وانتظر ردّ فعلها فلم يأتِ! (والدتي اعتبرت أن هذه الرسالة ليست منه بل من أنور، وأصرّت على ذلك، وما زالت). وبعد هذه الرسالة بقليل، التقت عينا والدي بعيني أنور في المدرسة، في لحظة تخلّ سماويّ عن المخلوقات البشريّة، و لم يدرِ أحد إلاّ واشتبكا ببعضهما في ضرب بالأيدي قاس جداً، كضرب بين عدوّين تماماً. كان الضرب يستهدف

المَقاتِل من الجسم، الرأسَ والبيضتين وباب المعدة. ثم احتشد لكل منهما فريقه. لم يحدّد أحد ممن تكلّم على الحادثة سبباً لها. لم يكن في سماء البلدة يومها غيمة منذرة بالمطر فوراً، كانت البلدة تمرّ لحظتها في ظروف غير مكهربة، ولم يكن بين العائلات ما يُنذر بما جرى. لم يرهما أحد يتلاسنان قبل الشرّ، تطلّعا في بعضهما وقدحتْ شرارة الشرّ فوراً من احتكاك نظرتيهما، فأبي كان يريد هذا الشرّ حتى يجعل علاقة والدتي بأنور مستحيلة، وأنور لم يرفض الشرّ لأنه كان قويّاً بحبّ والدتي له، وكان بالتأكيد سعيداً بهذا الحب، (هل أثارت معه موضوع الرسالة، وأوحى لها أنه المرسل، عندما رآها راغبة بقوّة في أن يكون كذلك؟) وكان والدي مدركاً لتفاصيل هذه العلاقة، التي كانت ما زالت في الرحم، لم تظهر بعد إلى الوجود، وكان مقدّراً لخطورتها إن لم يوضع لها حد فوراً. وأكثر ما كان يُزعجه أنه كان مقتنعاً بأن أنور لا يحبّها فعلاً، وبأنه "سيضحك عليها" فقط، أي إنه سيقيم معها علاقة جسدية (بالقدر الذي كانت تسمح به تقاليد تلك الأيام. لم يكن خياله يذهب إلى أبعد من ذلك! إلى ما كانت تقدر عليه والدتي!) ثم بعد أن يتمتّع بها ما شاء أو ما استطاع، سيتركها لتتغلب عليها مشاعر الخيبة والندم والغيرة وما إليها، بينَما كان هو، والدي، يحبها ويحلم بالزواج منها، حين تسنح الفرصة.

لقد اشترك أعمامي في هذه المعركة بكلّ ما يملكون من حسّ الانتصار للأخ على العدوّ. كانت كلّ ضربة من ضرباتهم قاضيةً ما استطاعوا. وحين وصل الدرك، بعدما اتصل مدير المدرسة بالمخفر وطلب منهم

التدخّل، أبقى أعمامي أخاهم الأصغر في الواجهة، حتى إذا ما اضطرّ الدرك لأخذ أحد من المتقاتلين أخذوه هو، لأنه تحت السنّ. وهذا أقلّ ما يمكن أن يفعله الإخوة لأخيهم.

كانوا يحبونه وكان يبادلهم الحبّ والوفاء. فحين تزوّج عمّي الأصغر ساعده والدي في بناء بيته، ساهم في أكثر من نصف المصاريف. وكان يعتبر أنه المسؤول عن مستوى معيشة إخوته، فلا يسمح لأحد منهم بأن ينقصه شيء أساسي. وظلّوا على هذه العلاقة دائماً، رغم كلّ الظروف الصعبة التي مرّت عليهم. فلذلك من المستحيل أن يختلف إخوة كهؤلاء، ولا يمكن أن يختلفوا حتى القتل.

لا! أبداً! لا يمكن.

أمّا إذا كان لأعمامي أن يختلفوا مع أحد حتى القتل، فإن هذا الأحد هو والدتي. إنهم يكرهونها حتى أعمق أعماقهم. إنهم بلا ريب يتمنّون موتها، فهي بالنسبة إليهم أفعى تسعى بينهم، في أعبابهم وفي أحضانهم، ويحلمون ليل نهار بالتخلّص منها. وحين أفكّر في الأمر أستغرب كيف أنهم لم يتخلصوا منها بشكل أو بآخر، ونحن في البلدة، كما في كلّ البقاع، قد عرفنا حالات من هذا النوع، أنْ يقتل رجل زوجته، وألا يسأل عنها أحد، فمنهم من أصيبت زوجته برصاصة في رجلها مثلاً أثناء الحرب، فوضعها زوجها في سيّارته الخاصة لينقلها إلى المستشفى، وانطلق بها وحده رافضاً أن يصعد

معه في السيارة أحد، وفي الطريق أطلق النار من مسدسه على رأسها، عن قرب سنتمترات قليلة، فوصلت إلى المستشفى ميتة، ومنهم من أصيبت زوجته خطأً، وكانت في بيتها على عادتها في هذا الوقت، فلمّا سمعها زوجها صرخت من الألم، تقدّم نحوها وأطلق عليها من سلاحه طلقة واحدة، في المكان القاتل، وراح بعد ذلك يصرخ طالباً نجدة من الأقارب والجيران.

غريب كيف أن والدتي لم يجرؤ أحد على المسّ بها. بل لم يجرؤ أحد على توجيه كلمة نابية لها أو غير لائقة. كان كلّ شيء بينها وبين خصومها يجري بصمت شديد.

ربما يكون ما حمى والدتي من الأذى، مشاعر والدي الشديدة التناقض تجاهها، وغياب الشعور الواحد لديه القادر على التغلب على المشاعر الأخرى. لكنّ والدتي لم تكن لديها مشاعر متعددة ومتناقضة تجاهه، بل كان لديها شعور واحد وحيد هو الكره. كانت تكرهه. لكنها كانت تخاف منه، وكان هذا الخوف يشلّ إرادتها (لا رغبتها)، في اتخاذ قرار بالفرار. "لو أستطيع الهرب!" كانت تردّد دائماً لصديقتها وكاتمة أسرارها مريم، "لكن إلى أين!" كانت تضيف. كانت تخاف منه كثيراً، وكانت مقتنعة أنه يستطيع إيجادها أينما هربت، كانت تخاف أن تُخطئ معه لأن الخطأ يكلّفها غالياً جدّاً. "أتذكرين، كانت تقول لمريم، كيف زربني في البيت أوّل أيام زواجنا، ومنعَني من الخروج أسبوعاً كاملاً، وقد أقفل عليَّ الباب وأغلق الشبابيك!"

مريم كانت تسأل أمّي دائماً، كيف تدبّرت أمرَها مع والدي، أوّل مرة بعد الزواج، ليلة العرس، وكانت أمي تؤكد لها أنها لم تفعل شيئاً إطلاقاً، ولا شكّ في أن والدتي كانت صادقة في كلامها، فهي كانت معروفة بعنادها. وكانت مريم تحبّ دائماً أن تسأل ذلك السؤال، الذي كان يثير رغبة والدتي في الكلام، "كيف لم يكتشف شيئاً؟ كيف هذا؟..." كانت تجيب والدتي، "أتعتقدين ذلك فعلاً؟ أتعتقدين أنه لم يكتشف شيئاً؟" وتروح والدتي من جديد، تروي لها ليلتها الأولى معه. كانت طريقة رواية والدتي لمريم سيرةَ زواجها، وكانت طريقة سماع مريم لهذه السيرة، وردّ فعلها على كلّ نقطة من نقاطها، نوعاً من طقس تمارسانه معاً، فكلّ شيء كان Prévisible منذ البداية وحتّى النهاية، فكانتا تتابعان حيث قوطعتا، وتتعجّبان أو تندهشان في المكان نفسه دائماً، وكأن الشيء جرى أوّل مرة، وكانتا تستثاران بسبب الجواب نفسه، وتسكتان في المكان ذاته الذي تصعب فيه الإجابة، إلى آخره.

لم تحرّك والدتي ساكناً بعدما أجبرها على خلع ثيابها بهذا الشكل المنتقم، بل تركته يتصرّف على هواه، مستسلمة لمشيئته ولتطوّر رغبته فيها. كانت تكتفي بالصراخ فقط، حين يبلغ ألمها حدّاً يفوق طاقتها على التحمل، وحتى هذا الصراخ كانت تحاول كتمه، لأن كلّ ما يحصل لها، وكلّ ما يمكن أن يحصل لها، هي مسؤولة عنه، وما عليها إلا أن تتحمّل نتيجة قرارها الذي اتخذته بنفسها، و لم يجبرها أحد

عليه. كانت مستسلمة لقدَرها، كأن مشيئةً ما لا تُردّ أرادت لها ذلك. أمّا هو فكان يزداد رغبة في إيلامها، كلّما صرخت، وكلّما ازداد جسدها استغراقاً في برودته ورفضه، وكان رغم هيجانه، ملاحظاً بقوّة لهذه البرودة وهذا الرفض. ثمّ بعد ذلك، أي بعد وقت قصير جدّاً من بداية هذا اللقاء، اندفع فيها ليكتشف أنّ الأمر تمّ بسهولة غير متوقعة، فتوقّف لحظة، كأنه تجمّد أثناءها، ثم تابع اندفاعه بقوّة عمياء، كأنّه جُنّ فجأة، فصار يريد أذاها وحسب، ويريد بعجها وتشويهها، "كان ينتقم منّي. ولولا أنه لم يكن يريد الانتقام مني قتلني. لكنه كان يريد أن ينتقم، وهو عارف أنه لا يستطيع الانتقام من ميت."

ثم كانت أمي تروي لمريم دائماً، كيف طلب منها أن تتمدّد على السرير فور دخولها إلى غرفة النوم، وأن تخلع ثيابها، هكذا بعبارة واحدة وبكلّ بساطة، وكانت بعدُ واقفة تنظر بحذر وخفر، في هذه الغرفة وأمام هذا السرير المُعَدّ المنتظر، فتردّدت أوّلاً، ثم بعد ذلك جلست على حافة السرير فقط، وَقالت له بصوت يكاد يكون مسموعاً:

"شوَي شوَي!"

فعاجلها بقوله:

"قلت لك تمدّدي واخلعي ثيابك!" ثم ذهب وأطفأ اللمبة، لتصبح الغرفة مُنارة بالضوء البلدي، الوافد إليها عبر برداية الشباك الرقيقة.

ثم لمّا رآها ما زالت جالسة على حرف التخت، تَقدّم منها وصفعها على وجهها أوّلاً وثانياً، ثم ضربها على رأسها، ثم انحنى بعصبيّة ورفع رجليها الاثنتين عن الأرض، ورماها على التخت ليصبح جسدُها كلّه ممدداً عليه، ثم قال:

"هذه آخر مرّة، اشلحي ثيابك!" فخلعت ثيابها وهي لا تكاد تصدق ما يفعله بها، كأنه ينفّذ خطّة معدّة من قبل، وهي لا تريد أن تخلع ثيابها، لكنها لا تملك أبداً أن تقول له لا! "أكيد! كانت تقول لها مريم عندما تصل والدتي إلى هذه النقطة من روايتها – أكيد لا يحقّ لك أن تقولي له لا، فقد أصبحت زوجته وبإرادتك، فلو تركك على هواك لما كنت سمحت له بالاقتراب منك". كانت والدتي في ورطة، ولم تكن تعرف ما عليها فعله في تلك اللحظة، وكيف عليها أن تتصرف، فانصاعت لأوامره علّ فورانَه يهدأ بعد قليل، فتسوّي الأمر معه حينئذٍ على طريقتها، فخلعت ثيابها إلا الداخلية منها، "فأنا أوّل مرّة يحدث لي هذا. صحيح أنني كنت ألتقي بأنور وأضمّه ويضمّني (كانت والدتي تتنهّدُ حين تبلغ هذه النقطة من سيرة زواجها ويتورّد خدّاها)، وكنتُ أطاوعه بلا مقاومة، فأسمح ليده بأن تتسلّل إلى حيث تشاء من جسدي، وأن تزيح ما تشاء من ملابسي، وكان يأخذ يدي ويقبّلها ويمرّرها على جسده، كأنه يتبرّك بها، ثمّ يحطّ بها حيث أوّلاً كنت أقول لا! ثمّ بعدها صرت لا أمانع لكثرة ما كان يُفرحه ذلك. كان يصرخ بحيث إنني خفت أوّل مرّة، ثم صار يسرّني هذا الصراخ، لكنني كنت أخشى أن يسمع صراخه أحدٌ مارّ أمام

استوديو التصوير الذي كنّا نلتقي فيه.

لا! لقائي بأنور لم يكن كهذا اللقاء. كان أنور شخصاً آخر مختلفاً ليس عن هذا (أي والدي) وحسب، بل عن جميع شبان البلدة، أما أريتُك الصوّر التي صوّرني إيّاها؟" "بلى!" كانت تجيب مريم بينما والدتي تستدير لتذهب إلى غرفة النوم، وتتناول مغلّفاً من صندوق خشبي مملوءٍ بالأغراض ومضبوب في الخزانة، وتعود به لتُري الصور إلى مريم، ما عدا صورتين اثنتين كانت لا تُريهما لها إلا في أوقات متباعدة جداً، لأنهما مخبّأتان في مكان يصعب الوصول إليه في كلّ لحظة. (إنّ هاتين الصورتين الآن عندي في بيتي، حصلتُ عليهما منذ سنوات عديدة، في الفترة التي وقعتُ فيها صدفةً على جواز سفر والدتي، وعليه فيزا إلى مصر من السفارة المصرية في بيروت!)

"أمّا هذا!" كانت تقول والدتي متابعة روايتها عن الليلة الأولى، "أمّا هذا!" (وتقصد والدي)، فكان شخصاً غريباً رغم أنني كنت أعرفه من زمان، فهو من الأقرباء. "عقرب يقرب!"

ثم اقترب منها والدي، ومدّ يده إلى صدريتها، ونتعها نتعة آلمتها، فرَجَتْه أن يتمهّل (تتصوّرين يا مريم أنني أرجوه، وهو الذي لم يَحُدْ يوماً عن طريقي حتى تزوّجته أخيراً) ثم خلعت كلّ شيء، وانسلّت تحت غطاء الفراش ورفعته حتّى رأسها، وهي ترتجف، وأدارت له ظهرها.

"بتستحي آ؟"

لا تنسى أمّي هذه الكلمة التي أطلقها عليها رصاصةً مُسمّمة! ولن تنساها ما بقي فيها عِرْق ينبض، فهي ما أحسّت أبداً بالغضب والإهانة والكره، وبكلّ هذه المشاعر المشابهة مجتمعةً، كما أحسّت لحظتها، وهي دائماً حين تتذكر تلك اللحظة يغلي دمها، ويدفق في كلّ أنحاء جسمها، يكاد يفجّر عروقها. وقد أطلق والدي هذه الكلمة، هذه "الرصاصة المسمّمة" حسب تعبيرها، وهو بعدُ لم يتأكّد تماماً من صحّة ظنّه في فقدانها عذريتها، إنما قالها مفجّراً غضبه لادّعائها البراءة والحياء، وهي تعرف أنه مطّلع على لقاءاتها المتعدّدة "المشبوهة" بأنور، وهو لم يكن باستطاعته أن يتصوّرها مرتاحة منشرحة مع أنور، وذاهبة للقائه بكلّ إرادتها، بينما هي منكمشة معه وحذرة وخجلانة ومجبرة. كأنما المرأة تستطيع التصرّف بجسمها، على هوى الرجل الذي تكون معه، حتى وإن كان هذا الرجل زوجها الشرعي!

هنا أحسّت والدتي أنها اقترفت خطأ العمر، "استحقّيتها!" لكن الرجوع إلى الوراء بات مستحيلاً، حتى وإن لم تمضِ سوى ساعات على قرارها البائس، بقبول الزواج من والدي. "صحيح أنه كان قراري الذي لا أحمّل مسؤولية اتخاذه أحداً، لكنه هو (أي والدي) ليس بريئاً بالكامل، بل كان هنا في اللحظة الحاسمة! كأنه كان يعرف أنها اللحظة المناسبة."

لكن والدتي رغم كل شيء، لم تفكّر يوماً في الانتقام منه شخصياً، أي بالإساءة إليه في حياته، بل كانت دائماً تلوم نفسها وحسب، لأنها لو لم توافق على طلبه من تلقاء نفسها، لما كان استطاع إجبارها، ولما كان أجبرها أحد. وكانت أحياناً حين تفكرّ بالانتقام، تقول إنه عليها الانتقام من نفسها، وليس من أحد آخر. وكانت تردّد أحياناً في حضوري عبارات من نوع "اللي ماتوا ارتاحوا!" فهل تغيّرت الحال في هذه السنوات التي أصبحتُ أنا فيها مقيماً على الدوام في بيروت، لا أزورها هي ووالدي إلاّ نادراً، مرّة في السنة وأحياناً قليلة مرّتين. فهل تغيّر الحال بحيث إن الأمور تعاظمت معها، حتّى بلغت حدّ الرغبة الفعلية في الانتقام منه، بل حدّ اتخاذ القرار وتنفيذه!

معقول؟

لكنّ الجرائد تقول إنّ القتل جرى الظهر، وفي ساحة التلّ، أي في الساحة الرئيسية في البلدة! ولكن ما دخل الجرائد؟ ما دخل الجرائد فالدنيا في مكان والجرائد في مكان، وخصوصاً الدنيا عندنا.

فهل يمكن أن تكون والدتي هي التي قتلته بيدها! بالمسدس الذي يُبقية دائماً تحت فراشه على مستوى رأسه، أم بالسمّ ألقته في طعامه، أم بإبدال حبّة الدواء التي يتناولها يومياً لمعالجة الفائض في دمه من الكولسترول؟ كيف يمكن أن تكون قتلته والدتي؟ هل ضربته على رأسه بالشاكوش وهو نائم. كان والدي يشخر أثناء نومه، وكانت والدتي تشتكي دائماً

(ليس له!) لمريم، وكانت تبوح لها بأنها لا تنام ليالي كاملةً أحياناً، فهل شخر بقوّة تلك الليلة، حتى أثار غضبها وأفقدها السيطرة على أعصابها، فقامت إلى شيء ما قاس، من حديد أو حجر أو ما يمكن أن يفي بالغرض، وضربته به على رأسه وهو غاف؟ لم تكن والدتي تجرؤ على نقل فراشها للنوم في غرفة أخرى، حتى لا تثير غضبه (وأقول الآن ريبته، في فترة ما على الأقل).

"حرمني حياتي" كانت تقول، وكانت تعترض على هذا الظلم، ظلم أن يدفع الإنسان هذا الثمن الكبير، مقابل خطأ اقترفه في لحظة شرود وغفلة، أوّل شبابه، وهو بعدُ لا يدري عن الحياة شيئاً.

فهل هي التي كانت في أساس هذا الجدار من الصمت الجهنّميّ، الذي أقيم حولي ليحول دوني ودون معرفتي بمقتل والدي في الوقت المناسب؟ فهل قال أعمامي: "قُتِل أخونا و لم يبقَ إلا هذه الأفعى وابنها فما لنا ولهما!"

هل قال أعمامي: "ما لنا ولهذه الأفعى وابنها الذي ليس ابنَنا، ليس ابنَ أخينا!" كانوا يشكّون في أبوّة أخيهم، والدي، لي، كانوا ربما يعتقدون أنني لست ولده، لأنهم كانوا على اطّلاع على ما خفي من الأمور، وكانوا على اطّلاع بما جرى الليلة الأولى بين والدتي ووالدي، وكانوا على اطّلاع بما لم يجرِ بعد تلك الليلة، على امتداد سنيّ حياته، وحتى مقتله.

"ما لنا ولهذه الأفعى وابنها" قال إذن أعمامي، وانحسروا إلى بيوتهم بعدما قاموا باللازم الضروري من واجباتهم. وهل اشتعلت حرب السموم الصامتة بينهم وبينها؟ لكنهم سيقتلونها إن كان هذا الافتراض صحيحاً، أي إذا كانت هي التي قتلته، أو هي التي دبّرت قتله، وسيكون قتلها هيّناً عليهم: يدخلون عليها ليلاً، فهي تبيت وحدها الآن بعدما غاب والدي، وينْدبّ واحد على رجليها يثبّتهما بقوّة، وينْدبّ واحد على رقبتها يشدّ عليها ويمنع عنها الهواء حتّى تختنق وتموت، ثم يدفنونها بكل بساطة في مقبرة العائلة، فلن يخطر على بال أحد أن يفتّش عن جثّتها هناك، وهم يعرفون ناطور المقبرة، فمن أسهل الأشياء عليهم أن يرسلوه في غرض ما، لساعة أو ساعتين، ومن أسهل الأشياء فتح مقابر العائلة هناك، وإدخال جثة في تابوت قديم، لجدّ أو قريب، وهذا أمر حدث، لكنني لن أبوح بتفاصيله، حتى وأنا في صدد هذه المكاشفة الخطيرة المحرّمة حتى أمام الذات، وحتى وأنا في هذه اللحظات الهائلة التي أمرّ بها الآن.

وإذا كانت هذه الفرضيّة مبنيّة، أي إن والدتي هي التي قتلت والدي، فإنهم قد يقتلونني أنا أيضاً، أنا ابنها. فلا أحد يشكّ أبداً في أنني أنا ابنها، فقد حبلت بي تسعة أشهر علناً، لم تخبّئ أثناءها بطنها المنتفخ، (هل كانت خبّأته لو أنها استطاعت؟) وقد ولدتُ في البيت لا في المستشفى (حيث قد أكون استُبدلت!) وكان حاضراً عند ولادتي جدّتي أم والدي والقابلة، وغيرهما من القريبات والجارات.

هل يمكن أن تكون والدتي قلبت الطاولة، وقرّرت ألا تقبل بما أنتجه قبولها بالأمر الواقع ذات مرّة، منذ أكثر من أربعين سنة؟ وهل أكون أنا أيضاً من نتائج هذا الأمر الواقع المرفوضة؟ ألهذا السبب لم تبلّغني بمقتل والدي، على أساس أن والدي مات وطويت صفحة الماضي إلى غير رجعة؟

يا الله!

حسناً فعلت سلوى إذ لم تأت ولم تتصل، فربّ ضارة نافعة، وإلا فكيف كنت سأروي لها كلَّ ذلك، كيف سأبوح لها بكل هذه الأفكار السوداء التي تجيء على خاطري، وبكلّ هذه الذكريات، أما كنت سأتحوّل في عينيها فجأة إلى كائن مسخ Monstre! كيف أروي لها أنّ عمي قتل زوجة ابنه العروس الشابّة، بعد مقتل ابنه العريس الشاب بقليل (شكّ فوراً في تصرّفها وخاف أن "تفلت". أو خاف من نفسه) ودفَنها في مقبرة العائلة سرّاً في الليل، فتح تابوت إحدى جدّاتنا الذي كان مهترئاً وزجّها فيه زجّاً، زَيّرَهَا، ثم أقفل باب المقبرة وعاد، بل عادوا. كانوا، أي إخوته، ضدّ هذه المبادرة لكنهم لم يتخلّوا عن أخيهم رغم اعتراضهم على تصرّفه، بل رغم استحالة القبول به، لكنهم لم يدروا إلا وكان قتلها. وليس في العالم شيء يبعدهم عن بعضهم، أو شيء يجبرهم على التخلّي واحدهم عن الآخر. وعندما يجري "الكلام" على هذه الحادثة، إن جرى "الكلام" عليها، وهو

أمر نادر طبعاً بل شبه معدوم، يكون ذلك دائماً بالرمز والإيحاء، بحيث إنّ أحداً آخر غيرهم، لا يمكنه أبداً أن يفهم شيئاً من "كلامهم". نظام مغلق من الرموز الشديدة العادية، التي لا تلفت انتباهاً، ولا تثير حشرية.

أمّا الخبر الشائع عنها، عن زوجة ابن عمّي، فهو أنها اختفت بعد مقتل زوجها، وذهبت مع أحد ما مجهول، كان يمرّ من هنا أحياناً، في الحيّ، وكان الحزن قد ترك أثراً بالغاً في عقلها، فقد كانت تحب زوجها؛ كانت مغرمة به حتى الجنون، وكان هو يحبّها ويكرّمها كما لم يكرّم رجل امرأة. واختفت بدون أن تترك أثراً. و لم يكن لها ولد إلا ما كان في بطنها!

كيف أروي لسلوى هذا كله، فهي بدون أن تعرف هذه الأخبار، وبعدما قرأت الجريدة فقط، قرّرت ألا تتصل بي (هل اتخذت هذا القرار فعلاً؟) فكيف سيكون موقفها لو أنني رويت لها هذه الأشياء، فستستدير عيناها في مقلتيها، وستفقد صوابها، وستخرج من عندي مطبقةً وراءها الباب بقوّة، لئلا ألحق بها وأقبض عليها وأدفنها كما (دفنّا) زوجة ابن عمي. ستغلقه عليّ وعلى أخباري وعلى تاريخي.

ليس من العدل مبادلة هذا التاريخ تاريخي، بتاريخها، حتى وإن كان الهدف توطيد علاقتنا. وهذا الظلم مضاعف، لأنّ أهميّة تاريخي أعظم بكثير من تاريخها الذي يقتصر على بعض أخبار الغرام والقلوب

المجروحة، أو على أخبار طلاقها التي تشبه أخبار كلّ طلاق، مهما كان مؤلماً، ولأنها من جهة ثانية لن تبقى معي لحظة لو علمت بهذا التاريخ!

يا الله!

كيف أن الأوضاع تنقلب بين لحظة ولحظة، وتنقلب رأساً على عقب، فكيف أنني كنت أعتقد نفسي، لساعات خلت، سيّد العلاقة معها، أنحو بها كما أشاء، على هواي، فإن أردتُ طوّرتُها إلى الزواج، وإن أردتُ قطعتُها، أو أدَمْتُ طبيعتَها كما هي – لقاءُ استراحة وريلاكس مرّة أو مرّتين في الأسبوع. هذه التي رأتني أستجيب للتدليك فذهبتْ إلى مدرسة، وعملت دورة مدّتها ثلاثة أشهر، واشترت كتباً ومجلات وما زالت تشتري. دجّنتني بالتدليك، نجحتْ في أن تحوّلني إلى "شيء" (برضاي) وهي تقوم بتدليكي. وكانت وهي تدلّكني تخبرني ما تشاء وتعرف أنني أسمع. عرفَتْ كيف تصون الخيط الذي يبقيني معها وعرفت كيف تقوّيه. فهل كنتُ ملكاً أترك للناس أمر تدبير أمورهم معي تبعاً لمزاجي، ثم تبدّلتْ الآن أحوالي، فصحّت فيّ أغنية عبد الحليم حافظ "والدّنيا شرّدتني وأنا الشابّ الأمير!" (لا أحبّ البكاء. لا أحبّ من الإنسان إلا دماغه. نخاعه الشوكي وحسب. التفكير. وشعاري هو دائماً: "أنا أفكر إذن أنا لا أبكي").

كيف أروي لسلوى أن أمّي المنشغلة بمقتل والدي، لم يخطر على

بالها لحظة أنّ الخبر لن يبلغني إلا بالصدفة. وأن أعمامي لم يبلغوني الخبر لأنهم يعتقدون أنني لست ابن أبي، أي إنّ أبي ليس والدي! وأنّ أحدا من الأصدقاء هناك لم يشأ أن يتدخل في أمر غريب لم يألفه و لم يعتَدْ عليه، و لم يحدث له أن تدبّر مثله في مرّة سابقة، فآثروا الانحسار جميعاً والصمت، من باب تفضيل التستّر والالتزام به عند الابتلاء بالمعاصي؟

"أيمكن لذلك أن يكون؟" هذا ما ستقوله سلوى لو قلت لها ذلك. وستقصد بسؤالها لا شك أنه هل يمكن لأعمامي أن يفكّروا هكذا، أيمكن أن يعتقدوا أن أبي ليس والدي؟ فكيف سأقول لها إنّ لديهم كل الأسباب ليعتقدوا بذلك، أو على الأقل أن لديهم أسبابهم وأن أسبابهم وجيهة ومبنية على أساس متين.

يا الله! هل عاد هذا الموضوع الآن من جديد ينهش راحة بالي، بعدما مضى على نسياني له زمان طويل، عشر سنين أو عشرون، (نسياني!)، لم يمرّ في خاطري أثناءها أنه سيعود ليلقي عليَّ بثقله على هذا الشكل، وبهذه القوّة، مرّة أخرى. كنتُ اعتقدتُ أني شفيت منه إلى الأبد، وها هو يعود ليحرق معه أحشائي من جديد، وليسمّم ليلي ونهاري، وليسمّم حياتي التي أحبها، والتي اجتهدتُ في بنائها حجراً حجراً وما أزال. فأنا اليوم جزء من هذا الوسط الذي استطعت أن أجد لي فيه مكاناً، وجزء من هذا المحيط الذي بتّ أجد فيه توازني، والذي فيه أحقّق ذاتي من جميع النواحي والأبعاد. فلماذا أنا هنا الآن، راضٍ

بحياتي، بينما ما يزال يؤلمني مكان آخر وزمان آخر؟

هل مرّ في خاطري ذات يوم أمرٌ كهذا؟ أي أن يعود إليّ هذا الكابوس بكلّ هذه القوّة المدمّرة؟

أمّا الآن، وقد بلغ الأمر هذا المبلغ، وانفجر المكبوت والمسكوت عنه، فلا بدّ لي من الاعتراف بأنّي A la rigueur je m'enfous ألا أكون ابن والدي! فهذا آخر ما يشغل بالي الآن، أنْ أكون من صلب والدي أو ألا أكون، يجب أن أعترف بذلك، بأنه أمر بات لا يعنيني. نعم، لا يعنيني.

فالمهم بالنسبة إليّ الآن هو أني "هون!"، آكل وأشرب وأعمل وأحبّ وأسعد وألهو وأتعب وأرتاح وأحزن وأفرح، وقد نجوت من الحرب سالم النفس والجسد، لم أغرق في لعب القمار، ولم أدمن على خمر أو مخدّر، ولم أتعرض لإصابة أو لخطف، ولم يحتلّ بيتي مسلّحون ولم أهجّر منه، وحين أصيب مرّة بالقصف لم أكن فيه. بل لم يتوقّف بي المصعد مرّة واحدة أبداً طَوال عشرين عاماً من الحرب وانقطاع الكهرباء المفاجئ! أحبّ ذلك حبّاً لا يوصف، وهو عندي إشارة واضحة من عناية ما في هذا الكون الجميل والرهيب، مفادها أن أيّامي آتية لا ريب! كنت أفتح المصعد وأدخل فيه فتنقطع الكهرباء قبل أن ينغلق الباب عليَّ! يا الله كم كان يعطيني هذا الثقة بالمستقبل، وكم كان يُفرح قلبي. وكان المصعد يُعتم فجأة ويتوقّف وأنا فيه لا أعرف في أي

طابق، وعلى أي مستوى، فأدفع الباب فينفتح، وأخرج لأجد نفسي في الطابق الذي أقصده بالذات! أحبّ هذه الإشارات التي تمدّني بما أنا محتاج إليه، وكانت كثيرة في أيّام الحرب، فحين أصيب بيتي بالقصف كما ذكرتُ كنت غائباً عنه لساعات فقط، عدت بعدها لأرى الدمار وما كان حلّ بي لو كنت فيه. وحين انفجرت سيّارة مفخّخة أمام مدخل المبنى الذي فيه بيتي، كنتُ قد اجتزت المكان من دقائق. بعد دقائق فقط من مروري، انفجرت هذه السيارة المفخّخة بكميّة كبرى من المواد الشديدة الانفجار (كما جاء في ما بعد، في التقارير الأمنية التي نُشرت في وسائل الإعلام المقروءة والمرئيّة والمسموعة)، وكان هذا الانفجار يستهدف شخصيّة كبرى، نجح في اصطيادها لكنه أدّى في الوقت ذاته إلى مقتل حوالى اثني عشر شخصاً بريئاً، كانوا عابرين مثلي في ذلك المكان، في تلك اللحظة القاتلة. كانت تلك حادثة كبرى تخضّ اليقين، لكنني نجوت منها، واعتبرتها بمعنى ما، إشارة من هذه الإشارات التي تفيد أنني لن أقضي في هذه الحرب، بل سأنجو منها بلا شكّ، وسأبلغ أيّاماً آتية لا بدّ، وجميلة. كنت موقناً في أعماقي طوال فترة الحرب، أنني ناج لا ريب، وأنّ سعادةً ما تنتظرني، وقد أكّدت الأيام هذا اليقين. فأنا اليوم إنسان راضٍ بما أنا فيه وعليه، فما هذه القوّة التي تريد العودة بي إلى الوراء، والتي تريد إغراقي في هذه الأوحال والأوساخ، فليس من العدل أن أضرس بسبب أنّ أهلي أكلوا الحصرم، بل ليس من العدل أن أضرس مهما أكل أهلي الحصرم.

أودّ أن أصبغ شعري!

أودّ أن أغيّر لون شعري الذي ورثته، وأودّ أن أغيّر كلّ ما فيّ، وما عليَّ.

أودّ أن أكون ولدت من رجل وامرأة آخرَيْن، ومن دين آخر، ومن لهجة أخرى، ومن مكان آخر. فلماذا يشكر الناس ربّهم على انتمائهم دون أن يكون لهم قدرة حقيقية على التغيير! بل أودّ لو كنت مستنسخاً على طريق الضأن دوللي.

أودّ أن ينسى الدروب إليَّ كلّ من عرفها من قومي! لكنْ...

لكنّ ما كُتب قد كُتب، فمهما كان شعوري صادقاً وعميقاً بأنّي لا أنتمي إلى هذه الدنيا، هناك، ومهما كان لا يشغلني أمر إن كنت ابن والدي أم لا، فإنّ مفاعيل هذه الحقيقة لا تُمحى ولا تبطل، فالمسألة لا تعنيني وحدي (ليتها كانت كذلك!) بل تعني الآخرين أيضاً وخصوصاً، فإذا ما قلت من جانبي "ما لي وما للآخرين!"، فهذا لا يعني أن المسألة حُلّت، فهم قادرون (كما هم ما زالوا فاعلين)، على ألا يتصلوا بي لإخباري بموت والدي، أو على الأقلّ بموت من هو بالنسبة إليّ والدي، بل على الأقل بموت من ربّاني. فلماذا هم، أقصد أعمامي، متيقّنون إلى هذا الحد من صحّة ما يعتقدون أنه الحقيقة؟ أيمكن أن يكون معهم حقّ إلى هذا الحد؟ أيمكن أن تكون أمّي قد أخْفَتْ عليّ هذه الحقيقة؟ أكان أعمامي دائماً على هذا القدر من اليقين لكنهم كانوا يستترون؟ يجب أن يكون السبب كبيراً بهذا الحجم حتّى تمتنع

أمي ويمتنع أعمامي عن إبلاغي بمقتل والدي. اتفقوا جميعاً عليَّ. اجتمعوا على الشرّ. هذا هو السبب بالذات!

لم أشك يوماً في أن أبي ليس والدي، أي في أنني لست من صلبه، ومن لحمه ودمه، وإن أقلقني هذا الموضوع كثيراً! فما الذي بدا مني عفواً، وأوحى إلى صديق المقهى بهذا السؤال الذي أصابني في المكان الأكثر إيلاماً:

"أكيد أنت أنه والدك؟"

وهو يقصد أنه ربما كان هناك شخص آخر غير أبِي، أعني والدي، يحمل هذا الاسم. لكنّ أحداً في زغرتا، بل في الكَوْن كلّه، لا يحمل على حدّ علمي هذا الاسم غير أبي ووالدي، أقصد غير أبي الذي هو والدي.

فما الذي فيَّ أوحى له بسؤاله واستدعاه!

لا! لم أكن أشكّ في أنني ولد والدي، لكنني كنت أخاف كثيراً من فكرة ألاّ يكون الولد من صلب والده. ولم يكن خوفي يشمل التبنّي بالتأكيد فهذا لا علاقة له بالموضوع، بل أقصد هذا وحسب: ألا يكون الولد من والده. وهو أمر على ما يبدو معروف وإن لم يكن شديد الانتشار.

نغّصت عليَّ صباي هذه الهموم وآلمتني، ودامت طويلاً إلى أن تآلفتُ معها أو تناسيتُها، لكنها ظلّت جمراً تحت الرماد. واللافت أننا في هذا الوسط الشديد المحافظة، كان هذا الأمر في متناولنا نحن الصبية منذ صغرنا، كنا نتحدث عن أولاد ليسوا أولاد والديهم، كانوا نادرين لكننا كنّا نعتقد أحياناً أنّ بيننا واحداً منهم أو اثنين.

وكنت شديد الحساسية على هذا الموضوع، كان المجيء على ذكره يهزّ كياني، وكنت لا أشارك في الحديث عنه، بل أغيب في نفسي أنسحب إليها، حتى ينتهي الرفاق من الكلام عليه.

تشاجر رفيقان من شلّتنا مرّةً وكنّا أوّل صبانا، فانبرى أحدهما وقال للآخر: "أنت لست من أبيك!" فتابع هذا الآخر الشجار كأنه لم يَسمع شيئاً، أو كأنّ ما سمعه جزء من الشجار وحسب لا يترتب عليه أشياء أخرى، بينما نزل عليَّ هذا الكلام قويّاً جداً، واعتقدت أنه كلام لا يُحتمل، وخصوصاً أن همْساً كان يجري بيننا، مفاده أن هذا الرفيق ليس من أبيه. وقد تابعتُ دائماً بانتباه زائد كلّ تصرفات هذا الرفيق، وكنتُ أراقبه بينما أعيش معه الأشياء ذاتها في الشلّة التي كنّا منها. كان يحبّ "الكنفشة" كثيراً فلا يرضى الجلوس في السيّارة، التي كنا أوّل عهدنا بها، إلا في المقعد الأمامي الذي كنّا نعتبره مقعد البرستيج، وكان يهتمّ بنفسه كثيراً وخصوصاً بملبسه، وكان من أول المدخّنين علناً، وكان أوّل المتزوّجين من الشلة (في العشرين من عمره)، تبعه

بعد أشهر رفيقان آخران. لا شيء فيه أبداً كان ينضح باختلافه عنّا، بل بالعكس كان "ريّساً" فينا، لذلك كان سرّه في أعماق نفسي غريباً. أمر واحد ربما كان يشي لي وقتها بحالته، وهو أنه كان لائقاً جداً، لا يغتاب أحداً ولا يؤذي أحداً، ويتودّد كثيراً إلى الناس أكثر بكثير مما كنّا نعتبره ضرورياً، وكانت هذه الصفة فيه تشغل فكري كثيراً، وكنتُ أحياناً أردّها إلى رغبته الدفينة ربما، في أن يحبّه الناس حبّاً يُنسيهم أمره. كنت أتعجّب في الحقيقة من أنه يشبهنا تماماً تقريباً، وكان يتحول عجبي إلى خوف أحياناً، عندما كان يبدو لي أن المسائل التي من هذا النوع، أي من نوع أن يكون ولدٌ من غير أبيه، تمرّ بكلّ بساطة، "بتمرق!"، وكنت أخاف عليَّ رغم أنني لم يساورني شكّ في أمري إطلاقاً. لكنني كنت أخاف هكذا بشكل عام.

لستُ متأكداً من أنّ أحداً من رفاق الطفولة والشباب، نعَتَني يوماً بهذا، بأني لست ولدَ والدي، لكنني أذكر كأنّ ابن عمّي قال لي ذات يوم، في لحظة خاطفة لم تتكرر بعد ذلك إطلاقاً:

"وأنت أيضاً كذلك!"

أعتقد أنه قالها خطفاً - إن كان قالها - كأنه يقول لي إنه لا يقولها، وصمت بعد انفلاتها منه صمتاً أراد به أن يختفي، فلم أجب بشيء، وفسّرتُ حرجه وشعوره بالذنب، بأنه لا يقصد قول الحقيقة بل يقصد أن يؤذيني وحسب، أو أن يشتمني. فسّرتُ قوله على أنه مسبّة مثل

"ابن الشرموطة" أو مثل غيرها من المسبّات المشابهة.

قرأت مرّة كتاباً لأحد موظّفي الرقابة السرّيّة، الذي كان مكلّفاً بمراسلات من يُشتبه بهم، كان هذا الرقيب يجد في بعض الرسائل ما يُدهشه، فقد قرأ أكثر من مرّة، إعلام سيّدة لصاحبها بأنها حبلى منه وليس من زوجها، وأورد مرة كيف أكّدت إحداهنّ لصاحبها، أنه هو والد الجنين لأنها لم تنم مع زوجها منذ شهر، وأنها حين نامت معه (أي مع زوجها) آخر مرّة لم تكن في حالة إخصاب. وهي تتذكّر ذلك جيداً لأنها حاولت أن تثنيه بقولها له إنها ما زالت في مرحلة الخصوبة، لكنه أصرّ عليها قائلاً: "معليش" لم يصدّقها. أو تكاسل. ثم أخبرتْ صديقها في رسالة أخرى أنها اتخذت قرارها النهائي بألا تجهض الجنين، وبألا تخبر زوجها بالحقيقة، لأنه لا يشك في شيء، ولأنها حريصة رغم كل شيء على بقاء عائلتها مجتمعة، وقالت إن زوجها رجل طيّب وفيه صفات حسنة كثيرة، رغم أن حياتها الجنسيّة معه باهتة (بل مقرفة أحياناً)، فهو لا يثيرها ولا تعرف اللذة معه إطلاقاً.

كنت صغيراً، فتى، عندما وقعت على هذا الكتاب وقرأته. فكيف وقعت عليه، بل كيف بلغني؟ لا أدري! إنّه من كتب الطفولة والصبا التي ما زلت أحتفظ بها في مكتبتي حتى الآن. فلماذا لم أرمِ به إلى الزبالة، مع أنني رميت بكثير من الكتب التي كنت أحتفظ بها بدافع الـ Fétichisme.

على كلّ، هذا موضوع قرّرت نسيانه من زمان، وتخلّصت منه فلم يعد كابوساً يهدّني كلّما تذكّرته. خَلَصْ! فأنا هنا الآن في بيروت، وأريد أن أعيش حياتي كما ينبغي. وقد ساعدني على نسيانه في الحقيقة كلّ شيء، كلّ ما رأيت وكلّ ما سمعت وكلّ ما لمست. حقيقةً كلّ شيء. فلا أنسى أبداً مثلاً كلمة من والدتي قالتها لي ذات يوم، وتركت تأثيرها الحاسم عليَّ. قالت، وكنتُ تشيطنت يومها طوال النهار وعذّبتها:

"أنت ابن أبيك بالتأكيد، فلولا ذلك لما كنتَ تعذّبني هكذا دائماً! ولما كنتُ (وهنا الأهمّ!) ولما كنتُ تعذّبتُ بك هذا القدر من العذاب، يوم وَلَدْتُك!" سلوى قالت لي، حين أخبرتني عن رغبتها السابقة في الحَبَل من الرجل الذي أحبّته قبل طلاقها من زوجها، إنها لسعادة قصوى أن تحبل المرأة ممن تحب، فيكون الولد مهما جرى فيما بعد ابن سعادتها. أي إن المرأة في هذه الحال، تستطيع احتمال الألم الناتج من الولادة، بكامل إرادتها، وهي ظروف نفسيّة طيّبة.

ساعدتني هذه الكلمة كثيراً على النسيان، أقصد كلمة والدتي، لأنها طمأنتني بالتأكيد. المهم أنني نسيت، ولم تعد تخطر على بالي عمليّاً هذه الأمور من زمان، وهي إن خطرت فسريعاً وبدون أثر.

وكان لا بد لي أن أنسى، لأنّ الحياة ليست سهلة على الإطلاق مع كابوس كهذا، وكان هذا بالفعل كابوساً أعيش معه الليل والنهار أحياناً. كنت في الليل أستعيد ما جرى في النهار، وما له علاقة بهذا

الموضوع، لأعيد به تركيب حياة والديّ مرحلة مرحلة، بل كنت أتصوّر نفسي مكانهما، وأسجّل بالتفصيل ما كنتُ فعلتُ لو أني كذلك. وكنت أتصوّر أشياء جديدة كلّما ازداد وعيي تطوّراً. وكنت في كل مرحلة من مراحل وعيي، أرسم من جديد حياة والديّ، بناءً على المعطيات الجديدة المحصّلة لدي.

كنت منذ أول وعيي، أصغي إلى كلّ صغيرة أو كبيرة تبدو لي على علاقة بالموضوع، وأسجّلها في دماغي، أحفظها قريباً من عينيّ، حتى تبقى ماثلة لي فلا أبتعد عن التفكير فيها لحظة واحدة، ليل نهار، وفي الحلم أيضاً، وكانت هذه الأشياء لسوء حظي كثيرة جداً، بل أكثر مما يُطاق، تبدأ من الأول، من أوّل الأوّل، من الطريقة التي تمّ بها زواج والديّ، بل من قبل، من هذه الورقة التي رماها أحدهم إلى والدتي التي كانت يومها فتاة في الخامسة عشرة من عمرها. كنت أسمع بانتباه شديد، كنت أنصت إلى كلّ شاردة وواردة، كنت ألملم النّتَف من هنا وهناك: خبرية لجدّتي، ملاحظة لأبي، إشارة من عمّ أو من قريب أو من صديق، ومريم، وخصوصاً مريم، وكنت أعبّئ الفجوات وأملأ الثقوب بما أحصّلُ من معرفة وبما أقدر عليه من تحليل، وذلك حتى تكتمل القصّة فلا يبقى فيها فراغ، وكنت كلّما كبرتُ أعدتُ بناء الأحداث، مستعيناً بما استجدّ لديّ من علم وخبرة، إلى أن أصبح هذا الأمر عندي إدماناً، لم أشفَ منه إلا بعدما ذهبت إلى الجامعة، وأقمت في بيروت، وبدأت أقلّل من مجيئي إلى البلدة والاتصال بها. وقد ساعدني في ذلك حالة الحرب التي دامت طويلاً، والتي جعلت

الطرقات تخلو من كلّ أمان، والهاتفَ شبه مقطوع على الدوام.

لكنني كنت دائماً، خصوصاً عندما كنت فتى، أعتقد أن هذه مشاكل لي، وأنها ظنون تخصّني وحدي. وكنت أيضاً أعتقد أنها مشاكل مبنيّة على وقائع ومشاهدات لم يطّلع عليها أحد، أو أنها منسيّة من الآخرين، الذين كانوا جزءاً منها، أو كانوا مطّلعين لسبب ما عليها، وبالأخصّ تلك الورقة التي رماها "أحد ما" إلى والدتي حين كانت تتحمّم، وما كتب عليها، ثمّ الطريقة التي تزوّجتْ بها والدتي في ما بعد من والدي، والطريقة التي ولدتُ بها، وإهمال أمر اختيار اسم لي. كنت أعتقد بالفعل أن هذه كلّها كانت أموراً منسيّة (أو كنت آمل بالفعل أن تكون كذلك!) وكنت أعتقد أيضاً، أن ما كان يجري بين والديّ قبل زواجهما وبعده، لم يكن يطّلع عليه أحد. كنت أعتقد أن هذه الأمور أحفظها وحدي، وأجترّها وحدي، وأعاني منها وحدي، وأنّ الناس تجهلها أو تنساها، وخصوصاً أعمامي إخوة والدي. كنت بالتأكيد أقول في نفسي من وقت لآخر، إنّ أعمامي لا بدّ مطّلعون على شيء ما، أو على أكثر من شيء ما، لكنهم يسكتون عليه، بل ينسونه بإرادة منهم بأنفسهم، حتى لا يطّلع عليه أحد، فيضخّم الأمور ويحمّلها أكثر مما تحتمل. لكنّ شكّي الآن لم يعد شكاً بل صار يقيناً. إنهم على علم تامّ بما كان وبما جرى، ويعرفون حتّى التفاصيل التي لا أعرفها أنا، ولذلك هم يعاملونني كشخص غير معنيّ بموضوع مقتل والدي!

فمن غير المعقول أن يكونوا فقط على علم "بشيء ما" كما كنت أظنّ في السابق، فهذه فرضيّة مجافية للمنطق. فلا بدّ أن يكونوا على علم بأدق التفاصيل. بل لا بد أنهم عاشوا هذه القصة بكاملها من أوّلها وإلى آخرها، وكانوا جزءاً منها، وكانوا من صنّاعها. فهل يمكن ألا يكونوا علموا عندما ولدتُ أن جدّتي، أمّهم وأمّ والدي، هي التي سمّتني بهذا الاسم: رشيد! بعد أسبوع من ولادتي!

من غير المعقول بالتأكيد ألا يكونوا علموا بهذا، لكنني كنت اعتقدت دائماً أنهم أرادوا أن ينسَوا، وأن إرادة النسيان لديهم كانت كبيرة جداً، بحيث إنهم كانوا يتصرّفون كأن هذا الأمر لم يكن. لم يحدث. وكنت على يقين بأنني وحدي الذي أعيش هذا الكابوس. وكان في اعتقادي أنه، بينما كانوا هم يتخطّون الحدث، كنت أنا أجترّه وحدي، ليغذي أرَقي ويولّد لديّ الأسئلة الحارقة. لكن الأمور لم تكن تجري على ما كنت أتصوّر. أو بالأحرى على ما كنت أتمنى.

ماذا كان موقف أعمامي عندما بقيت أسبوعاً بلا اسم؟ وماذا قالوا لوالدي وماذا قال لهم؟

لماذا بقيتُ أسبوعاً بلا اسم؟ لماذا لم تُشْغل والدتي بالَها أبداً باسمي، ولا والدي أراد أن يعطيني اسماً؟ لَم أكن زينة حياتها إذن، و لم أدْخل البهجة إلى قلبيهما أو إلى قلب أحد منهما؟ لماذا؟ فهل كنت خطأً لم يريدا أن يتحمّلا نتائجه.

لكنّ جدتي ذاتها هي التي تروي بفخر كيف أن والدي دخل بعد أسبوع على ولادتي (بعد أسبوع!) وتأمّلني جيداً ثم قال إني ابنه وإني منه!

كانت والدتي إذن عالقة "علقة بنت كلب"، فأنا من صلبها من أحشائها، لا تستطيع نكران ذلك، فقد حملتني في بطنها علناً، على مرأى من كل الناس، طَوال تسعة أشهر، وقد ولدتني في البيت، لا في المستشفى (حيث قد أكون استُبدلتُ)، وكان حاضراً إلى جانب القابلة والدتها وجدّتي لوالدي وغيرهن، وكان الآخرون ينتظرون في الخارج.

وقد ترك أبي أمر تسميتي إلى من يشاء، ولم تطرح والدتي على نفسها الموضوع أصلاً، لا قبل ولا بعد، ثم إنها لمّا وُلدْتُ لم تكن في وضع يسمح لها بالتفكير في اختيار اسم، لأنها كانت في حالة صحيّة صعبة جداً، فقد نزفت كثيراً وهي تلدني، ولم يفاجئها ذلك بل كانت تنتظره ولا تتوقّع أن يحدث غيره، وكانت تتردد في الكلام على ولادتها بهذه الصراحة الفجّة، التي كانت تجعلني أنكمش إلى داخلي لأختبئ فيها لا أدري أين. كانت مريم تناديني أحياناً، عندما كان يبلغ الحديث بينها وبين والدتي، هذه المواضيع الحسّاسة، وتأخذني بين ذراعيها وتقبّلني.

لا أدري ما إذا كنت أحبّ مريم أم لا، لكنني كنت أحسّها شيئاً

منّي، كنت أحسّها داخلة في تكويني، في الأصل، سلباً وإيجاباً، وكنت أحبّ حضورها، لولا أرَقي من هذه الكميّة الهائلة من الأخبار، التي كانت والدتي تسكبها سكباً في حوزتها. وبعدما كبرت وصرت فتى، صرت أتساءل عمّا إذا كانت ستحتفظ بكلّ هذه الأخبار لنفسها، عندما تتزوّج، وكنت أتساءل بقلق عمّا إذا كانت بالفعل قادرة على كتمان هذه الأمور عن زوجها، أو راغبة. وكان يشغلني كثيراً هويّة الرجل الذي ستتزوّج منه، ولم أفكّر يوماً بأنه سيكون عمّي الأصغر. وعندما علمت بخبر زواجها، ومن عمّي الأصغر بالذات، صُدمتُ، وركضت إلى البيت أخبر والدتي، أقول لها باضطراب، ونَفَسي يكاد ينقطع: "أمّي! مريم ستتزوّج عمّي!" فاجأتني والدتي بكلّ هدوء "إنشا الله تتهنّى!" فصدمت بهذا الجواب صدمة كبرى، لأنني اعتبرت أنّي بحت لها بالمخفيّ المكبوت في نفسي، وبحتُ لها بأنني بتّ وإيّاها في الخندق الواحد، وعلينا مجابهة الأمور متّحدَين! اعتبرتُ أنّ مصالحنا توحّدت، وأن رأسينا الآن معاً في "الدقّ!"

انشغل بالي كثيراً جداً، لكنّ عمق الصداقة بين مريم ووالدتي كان يسمح بشيء من الاطمئنان. لكن إلى حين.

لا أدري ما كانت مشاعر مريم تجاهي، وما إذا كانت تحبّني أم لا، وما إذا كانت تشعر نحوي بالشفقة أو بالاحتقار. كان يشغلني كثيراً أن أعرف من أنا في عينها. كنت أتصوّر أحياناً أنها تروي قصّتي إلى أحد ما، إلى

زوجها المقبل خصوصاً، وكنت أحاول أن أحزر ما تقوله له، وأتساءل.

الآن، في هذا العمر هو عمري، لو قدّر لي أن ألتقي بها وهي في عمرها ذاك. لكنت التحمت بها التحاماً بالتأكيد. إنها في ذهني وفي لاوعيي المرأة التي أشتهي. أريدها. وأوّل مرّة استحلبت نفسي كان عليها بالذات، أقصد كانت عندنا في البيت، وكان عمري على مشارف سنيّ البلوغ، كانت جالسة في غرفة الجلوس، مستلقية تنتظر عودةَ والدتي التي خرجت لغرض ما، لم أعد أذكر الآن ما هو، كنّا في فصل الصيف وكان الوقت قبيل العصر، وكنت في غرفتي التي أنام فيها وأنعزل بأشيائي الخاصة، كنت أعرف أنها هنا، لكنني لم أكن أكيداً من أنها لاحظت وجودي في الغرفة، وفي لحظة ما نظرتُ من ثقب الباب لأرى ما هذا الهدوء الذي يسود البيت، فرأيتُها غارقة في الكنبة، مُنزلةً رأسها إلى وسط المسند، ومؤخّرتها إلى حرف المقعد، ويدها بين فخذيها عند منبتهما. كان فستانها منحسراً إلى أعالي فخذيها، بحيث كان الكيلوت يَبين بشيء من الوضوح، لكنّ يدَها كانت تحك أسفل بطنها من فوق الفستان، في حركة هادئة جدّاً، كانت تفتحُ عينيها من وقت لآخر، كأن غصباً عنها، لئلا يفاجئها أحد ربما في هذا الوضع. اهتجتُ على هذا المشهد، وكنتُ في تلك الفترة بدأتُ تجاربي الأولى في مداعبة جسدي، وبعفوية مطلقة فتحت الباب بهدوء. رأتني بالتأكيد أفتح الباب، أو أحسّت أو أدركت بطريقة ما أنّي فتحته، لكنها لم تغيّر في تصرّفها شيئاً، في عينيها اللتين كانت تفتحهما رغماً عنها، كأنما لتراقب ظهوراً مفاجئاً لوالدتي أو والدي أو أحد آخر، ولا في

جسدها الممدّد على هواه بلا أصل ولا قاعدة، ولا في حركة يدها، فدُهشتُ وزادت هذه الدهشة في رغبتي، وبقيتُ واقفاً في الباب لا أتقدّم ولا أتراجع، بقيت واقفاً أتأمّلها بلا خوف ولا حرج، ثم لا أدري من أين أتتني هذه الجرأة وكيف، بل لا أدري ما إذا كانت هذه تسمّى جرأة، فوقفتُ عند الباب لجهة داخل الغرفة، التي كانت أقلّ إضاءة من قاعة الجلوس، وأخرجتُ ذلك الشيء الذي كنت بدأت أكتشف خطورته، ورحت أحرّك يدي، أنزلها وأرفعها على هوى لذّتي، حتى أرقتُ ماءً صافياً يحوي بياضاً لزجاً. كانت تلك المرّة الأولى التي أريق فيها بهذا الشكل الصريح والكامل والناجز. وعندما انتبهتُ بعدما بلغتُ، كانت ما زالت مغمضةً عينيها لا تفتحهما، وبدا لي أن جفنيها كانا في تلك اللحظة ثقيلين جداً. أثقل مما قبل بكثير. ثمّ انسحبتُ إلى غرفتي بلا كلام ولا إشارة ولا شيء. أغلقت الباب ورائي بهدوء وتمدّدت على فراشي. أحسست أنني انتصرت، هذا كان أوّل شعور اتضح في رأسي وأنا ممدّد أرتاح، وأفكّر بعمق وصفاء. وأحسست أنني إنسان محظوظ.

لقد انتصرتُ على خوفي من زواجها بعمّي (فما جرى بيننا كان أثناء "المفاوضات" التي أدّت بعد أشهر أو أقلّ إلى زواجها به). انتصرت على خوفي لأنّ الشيء الذي بيني وبينها كان جنساً، كان مضاجعة، لقد ضاجعتها، بل أكثر، فهي إذن محكومة بمراعاتي، ومحكومة بردع رغبتها، إن وُجدت، في إفشاء الأسرار التي تسيء إلى سمعتي. ثم إنّ قبولها بما جرى، بل استدعاءه، يعني أنها قبلت بي بمعنى ما سيّداً،

أقصد قبلت بسيادتي. نعم بسيادتي! فلي عليها إذن ما لصاحب السيادة على المسود. وكونها قبلت بسيادتي، بلا زواج أو ما شابه، فمعناه أن اعتبارها لي عال!

فأنا ابن أبي إذن!

ثم، وبكلّ بساطة، إن تجرّأتْ على البوح بأسرارها، فلن أتردّد أنا إطلاقاً في البوح بأسراري. لن أخجل من شيء ولا من أحد. سأذهب مباشرة إلى عمّي وسأقول له "انتبه يا عمي! لا تتزوّج هذه المرأة لأنها ليست شريفة! لقد جرى بيني وبينها هذا..." وسأذكر له علامة من جسمها، من مكان فيه لا يمكن أن يراه أحد، إلا من سمحت له هي برؤيته. لكنني تذكّرت أنني لم أرَ على ما كان بادياً لي من جسدها أيّ شيء مميّز، كشامة مثلاً أو آثار حرق، أو آثار جرح أو طعم ضد مرض، أو شيء من هذا، فلن أستطيع إذن دعم قولي بحجّة لا يمكن رفضها، لأني لم أرَ سوى لون ثيابها الداخلية، وما عري من فخذيها، وهذا ليس ميزة يستدلّ بها على شيء خاصّ في امرأة، إذ لكلّ امرأة ثياب داخليّة، ولكلّ امرأة عري فخذين! فقلت يجب إذن أن أتقدم أكثر في المرّة المقبلة، يجب أن أقترب منها وألمسها وأشدّ جسدها، بل أكثر، كرجل وامرأة، كما يخبرني رفاقي، وإن استعطتُ يجب أن أجعلها تبادر، هكذا لا تعود قادرة على ادّعاء ما يناسبها، ولا أبقى مهدّداً بقدرتها على البوح بما زوّدتها والدتي من أسرار تعنيني. وهكذا بدأت أخطّط وأترقّب الفرص المناسبة، لكنّ هذه الفرص لم تكن لتأتي، بل

طال غياب مريم بعد ذلك اليوم وتأخّر مجيئها لعندنا، وكان كلّ يوم يمرّ يزداد ثقل الانتظار عليَّ، وأخيراً سألتُ والدتي لما تأخّرت مريم في المجيء على غير عادتها، ففوجئت والدتي بهذا السؤال، وقالت إنّ مريم مشغولة هذه الأيام. لم تقل والدتي إن مريم مشغولة بزواجها، بل قالت إنها مشغولة وحسب. كان زواج مريم يزعجها بلا شكّ كثيراً، لكنها لم تكن تملك أيّ حجة أو حيلة لردّه والوقوف في وجهه. أمّا تفسيري أنا لغياب مريم، فكان مختلفاً عن تفسير والدتي. تأخّرت مريم في المجيء خجلاً مني، كان يصعب عليها أن تراني، بعدما جرى بيني وبينها ما جرى. ثم عادت زياراتها لوالدتي وانتظمت من جديد، لكنْ مع بعض التباعد بين الزيارة والأخرى بسبب انشغالها بأمور زواجها. وبعودتها تنشّط أملي من جديد، وصرت أبتدع الحيَل التي تسمح لجسدينا بأن يتلامسا، وأن يتحاكّا. صرت أقف في الباب الذي تدخل عبره، حتى تلامسني وتحفّ جسدها بي. وصرت أقف وراءها لأطال شيئاً عالياً أمامها، وأشياء من هذا. وكانت تحمرّ كثيراً. وكنت أخاف أن تراني والدتي. كانت المرأة الأولى التي غزت مخيّلتي، ورافقتني خيالاتها وأنا مختلٍ بنفسي. ومرّة رأيتها من ثقب باب غرفتي وحدها في غرفة الجلوس، ففتحتُ الباب ووقفت فيه، كما وقفت المرّة السابقة، فنهضَت فوراً، والتحقت بوالدتي التي كانت تحضّر القهوة في المطبخ. أما محاولتي الأخيرة فكانت أسوأ من هذه بكثير، فقد كانت مقرفصة ذات مرّة تبحث عن "بلطاف" لأمّي تحت سريرها، فتقدّمتُ مدّعياً مساعدتها، فأحنيت رأسي كثيراً لأستطيع أن أرى تحت السرير، لكنني ملت بوجهي نحوها، وكنت

في وضع يسمح لي برؤية كل شيء، فرأيت ومددت يدي أداعبها في تلك الأمكنة، لكنها اضطربت كأنّ ناراً لامستها، وانسحبت بعدما صفعتني وشتمتني. قالت لي: "كلب!" وكان هذا بالنسبة إليّ قولاً لا يحتمل، فأصبتُ بإحباط شديد، دمتُ أيّاماً لا أستطيع التخلّص منه، وندمت على ما قمت به ندماً لا يوصف، لا شعوراً بالذنب وحسب، بل شعوراً مني بأني أهدرتُ نصري الذي حقّقته لأسابيع خلت، وهذا هو الأهمّ، فلم يعد لديّ الآن ما يردعها عن البوح بما تشاء، ساعة تشاء، ثمّ إنها أفهمتني بهذا، أن ما جرى في ذلك اليوم لم يجرِ بالنسبة إليها، وأنها لم ترني أسحب شيئي، وأن ما كانت تفعله هي، ليس سوى حكّ لشيء رعاها، وهذا من حقّها حين تكون وحدها، ثمّ إنها لا تتذكّر في الحقيقة ما إذا كانت حكّت شيئاً، لأنها كانت نائمة. لقد كانت نائمة وأنا المعتدي، فمن مصلحتي القصوى السكوت.

ما أغباني! فكيف أهديت لها نصري الذي لم أكن أحلم بمثله. ولماذا لم أتروّ. لماذا لم آخذ في الحسبان أنها قد ترفض. كان عليّ أن أتقدم ببطء أكثر. كان عليّ أن أكتفي بمبادرات من نوع وقوفي في الباب، لإجبارها على حفّ جسمها بي، أو أن أقف وراءها لأتناول غرضاً عالياً من أمامها، أو شيئاً من هذا. لكنني خسرت الحرب كلّها، ولم أخسر معركة وحسب، وعليّ الآن نسيان المرحلة بكاملها، والانتقال إلى شيء آخر لا أدري ما هو، ولن أستطيع بعد الآن الحلم بالوصول إليها مرّة أخرى، فقريباً جداً ستصبح زوجة عمّي الأصغر، الذي كان أكثر ما يحبّه والدي. لم أكن خائفاً من أن تخبر شيئاً مما قمت به إلى

عمّي، لأنها كانت في الحقيقة امرأة عاقلة جداً، لا من النوع الذي يقترف الحماقات. ثم إنها كانت في الأخير تدري أنها في حال فتحت معركة معي حول هذا الموضوع، فلن تكون رابحة، لأنها ستتأذّى مهما خسرتُ أنا (يا الله! سيقول أعمامي: "لو كان من دمنا ولحمنا لما فعل ذلك!") لكنني كنت خائفاً على أخبار والدتي. فمن يدري كيف تتطوّر الأمور، إن رغبَتْ، بهذا الكمّ الضخم والخطير من الأخبار التي زوّدتها به والدتي، (على مسمعي!) أفضت لها والدتي كل ما في ذاتها، وكلّ ما في قلبها وما عليه. أفضت لها بما كان يجب السكوت عنه، فليس من الحكمة البوح بكلّ شيء، وليس من الحكمة الغفلة عن المخاطر، التي قد ينتج منها تسليم الذات بهذا الشكل. وليس من الحكمة تناسي الخفر إلى هذا الحد.

أخبرتها والدتي أنه لم يفاجئها أنها كادت تموت وهي تلدني! (والدتي تقول إنها كادت تموت، أمّا جدّتي والدتها، وجدّتي أم والدي، فكانتا تقولان إن ولادتها كانت صعبة لأنها الأولى!) ولم تُفاجأ والدتي لكونها نزفت دماً كثيراً، لأنها طوال فترة حبلها كانت تشعر أن حجراً صلباً يتعاظم في أحشائها، وأن هذا الحجر سيفلقها عند خروجه. والمفاجأة الكبرى بالنسبة إليها، يوم ولادتي، كانت أنها ظلّت حيّة ولم تمت!

حلمت أمّي ليلة عرسها، بعدما أفرغ والدي غضبه فيها، أنها كانت في الصحراء كما في أيّام الجاهليّة، وأنّ قبائل تغزو قبائل، وأن قبيلة

غزت قبيلتها وسبتها، وأن الفارس الذي كانت من نصيبه اغتصبها أوّل المساء، بعدما أجبرها على التمدّد على الرمل الحارّ والحصى، فتمنّت لو أنها تموت أو تنتقم منه، لكنها كانت سبيّة عاجزة، لا تملك إلا أن تجترّ غضبها، فقامت عندما نهض عنها إلى كومة من الحجارة الحارّة من أثر الشمس عليها طوال النهار، وأدخلت رجليها الحافيتين فيها علّ عقرباً تلدغها، أو أفعى سامّة! كانت والدتي في هذا الحلم تحبّ ابن عمّها، كما كانت الفتيات العربيات قديماً يحببن أبناء عمهنّ، وكانت ستتزوجه بعد أيّام لو لم تصرْ إلى هذا الوحش الغريب. وصارت في حلمها تحلم أنها تلتقي بابن عمّها دائماً في غياب سابيها، وتتمنّى ألا تفيق من هذا الحلم.

ولكثرة ما نزفت والدتي أثناء ولادتها لي، استُدعي لها طبيب أشار بنقلها إلى المستشفى فوراً، فنُقلت وحدها وبقيتُ أنا في البيت لم أخرَجْ منه إطلاقاً. وبعد أيام عديدة على ولادتي، وكانت والدتي ما تزال في المستشفى، ووالدي لم يرَني بعد، سمّتني جدتي أمّ أبي بهذا الاسم: رشيد، لا أدري لماذا، إذ لا أحد في العائلة كان على هذا الاسم. كانت شديدة الإعجاب بالخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد، وكانت مغرمة بأخباره ترويها لنا دائماً على طريقتها.

لم يَرَني أبي إلا بعد أكثر من أسبوع على ولادتي، ولم يُفاجأ أحدٌ بهذا التصرّف، وخصوصاً جدتي، التي كانت مشهورة بأنها تعرف عن الرجال أكثر مما يعرفه الرجال عن أنفسهم، إلى حدّ أن النسوة كنّ

يسألنها أحياناً، عمّا إذا كانت ذات يوم رجلاً. و لم تُفاجَأ والدتي أيضاً بالتأكيد لأسباب هي لبّ المسألة.

تأمّلني والدي حين رآني أوّل مرّة طويلاً. طويلاً جدّاً. كنتُ طفلاً جميلاً بشكل غير مألوف، كنت جميلاً بحيث إن أباً لا يمكن إلا أن يكون سعيداً بكوني ابنه. خرجت والدتي قبل أن يدخل أبي ليراني، لكن جدّتي والدته بقيت في الغرفة بعدما تراجعت حتى الباب، حيث وقفت تتأمّل ابنها والدي.

جاء أبي بكرسيّ جلس عليه وانحنى يتأمّلني ويراقبني، وبعد فترة طالت قليلاً، تفقّده أصحابه (أبي كان دائماً معه صحبه) ففوجئوا به جالساً هكذا على غير عادة منه ولا طبع، فسألوه عمّا إذا كان به شيء، فأجابهم فوراً وهو ينهض "أحفظُه عن ظهر قلب، إنه ابني!"

بماذا كان يفكّر والدي حين قال هذا؟ ماذا كان يجول في خاطره؟ هل قال ذلك ليذكّر بأمر بديهي، فتسمعه جدّتي، فتفرح كما يفرح الناس عند سماع أمر بديهي؟ أم أنه كان يعرف أن لدى والدته شكوكاً فأراد طمأنتها، وأراد إعطاءها الضوء الأخضر للاهتمام بي كما يجب، أقصد كما يجب أن تهتمّ بابنه الذي منه؟

(هل كان والدي أجرى فحوصاً للـ ADN كما يحدث اليوم، ليتأكّد من أبوّته البيولوجيّة لي؟

السؤال هذا ذاته يمكن أن أطرحه على نفسي، فهل أجري فحوصاً للتأكد من بنوّته؟ وماذا تغيّر النتيجة مهما كانت؟)

قال لها من أين أتيت بهذا الاسم، فقالت له ألا يعجبك؟ فسكت.

هل كان صحبه على علم بتفاصيل علاقته بوالدتي، وفهموا المعنى المخفيّ لعبارته، أم أنهم لم يفهموا منها إلا ظاهر معناها وحسب، وظاهر معناها أنه يتأمّل ابنه البكر الذي سيُكنّى به، ابنه الوليد الجديد الذي يدهشه ويملأ قلبه سعادة وغبطة؟

ماذا رأى والدي فيَّ يشبهه حتى اطمأنّ قلبه هذا الاطمئنان، وحتى قرّر أن تبقى والدتي في بيته لتهتمّ بي؟ فأنا متأكد من هذا، من أن اطمئنانه لرؤيتي كان عاملاً حاسماً في قراره بعدم الإساءة إليها (أقصد إساءة كبرى، من نوع قتلها وإخفاء جثّتها) وكان عاملاً أيضاً في قراره إبقائها في بيته، وهذا ربما هو ما جعلني في عين أمّي سبب شقائها الدائم، فلولاي كانت المشكلة نحَت منحى آخر أدّى ربما إلى نجاتها، من يدري! وعلى كلّ حال ليس هناك وضع أسوأ من هذا الذي أمضت حياتها فيه.

يبدو أنّ والدي لم يستطع منع نفسه في لحظة ما، وهو منحنٍ عليَّ يتأمّلني، من أن يفكّ حفاضي ويتفحّص بدقة ما خفي تحته، وقد تنهّد

تنهيدة عميقة حين وقع نظره على شيء ما (الشامة؟) في مكان محدّد مني، يشبه شيئاً ما في مكان محدّد منه. وقد فوجئت والدتي حين عادت ورأت حفاضي مفكوكاً هكذا، وصرخت بلا انتباه صرخة سمعها والدي، فعاد على أثرها ليقول لها:

- اتركيه!

فنظرت إليه والدتي نظرة تلقائية، ليس فيها سوى أنها انتباه لمصدر الصوت، وعادت إلى الانصراف إليّ، فقال لها والدي:

- قلت لك اتركيه!

فنظرت إليه من جديد مستغربة مستفسرة، فتقدم منها وصفعها، وأنهضها بيديه القويّتين ودفعها خارج باب الغرفة، فصرختُ أنا في هذه اللحظات نتيجة هذا العنف الذي أصابني منه شيء بالتأكيد، لأن والدتي كانت ممسكة بي وهي تعيد ترتيب ثيابي، واضطرت لا شكّ إلى تركي وإنزالي عن يديها بسرعة، فاصطدمتُ بحرف السرير وصرختُ. والدتي لا تصرخ. لم تصرح إطلاقاً حين صفعها والدي ودفعها خارج الغرفة وهي تمانعه، ولولا الصوت الذي أصدره والدي حين أمرها بأن تتركني، ولولا الصوت الذي أحدثه وقع يده على خدّها، لكان ما جرى كلّه أشبه بمشهد من فيلم سينمائيّ صامت. وكما أنها لم تصرخ فإنها كذلك لم تبك. فالبكاء أمر لا يمكن أن تسمح

بحدوثه مهما كان: حمد ض. لن يبكيها! صحيح أنه قد دمّر حياتها، لكنه لن يتمتع برؤية دمعة تنزل من عينيها.

على صراخي المفاجئ حضرت جدّتي، فرأت ابنها يشدّ والدتي بهذه القسوة، وكانت جروح والدتي ما زالت طريّة، تستدعيها في الحقيقة البقاء في المستشفى، لكنها لسبب ما، هو الاهتمام بي بالتأكيد، خرجت منه، مؤكّدة للطبيب أنّ عندها في البيت من يهتمّ بها.

رأت جدّتي ابنها يرمي والدتي على الأرض، ورأت والدتي تسعى نحو الكنبة لترتمي عليها، ورأت جدّتي أيضاً أصحاب والدي واقفين صامتين، ينتظرون بهدوء وعاديّة أن يُنهي والدي ما يقوم به ليخرجوا معاً، كأن والدي استوقفهم لحظة ليفتّش عن مفتاحه الذي نسيه على الطاولة.

جدّتي ما زالت حتى وفاتها تصرّ على أن المرأة شرّ كلها، لكنها كانت تضيف دائماً أن الرجل أشرّ منها. الرجل بغل كانت تقول! والبغل عندنا في هذا السياق يعني القسوة والجلف والأنانية وعدم الامتنان، ونكران الجميل كأنّه، أي الجميل، لم يكن. ومأخذ جدّتي الوحيد على والدتي، هو تصرّفها بطيش في الأيّام القليلة السابقة على زواجها. لم يفت جدّتي ملاحظة الصدمة على أبي غداة زواجه، وحزرت سببها فوراً، وأدركت أنّ تلك الليلة كانت مدخل الاثنين إلى الجحيم.

إن كان صحيحاً أنه ليس من عاداتنا أن نتحقّق من وجود الدم على شرشف العروسين، غداة الليلة الأولى، فإنّ الطيش من جانب الفتاة، قد يؤدّي إلى ما هو أعظم. جدّتي حاسمة في هذا الأمر.

كانت جدّتي تحبّني كما تحبّ الجدّات أحفادهن وأكثر، وكانت غالباً ما تقول لي عندما تراني:

- كأنك صورة عن أبيك، لكثرة ما تشبهه، الحمد لله!

وكانت ترى في سلوكي شبهاً عظيماً بسلوك والدي، وتُسرّ لذلك:
- الحركات ذاتها! كانت تقول.

قالت جدّتي لوالدتي عندما ضربها تلك المرّة:

- اسمعي! حمد ابني لا أحب أحداً عليه، لكنني أنبّهك منذ الآن، انتبهي! فهو يعتقد بالتأكيد أنك لوّثت ابنه! لوّثت مخرج ابنه إلى الدنيا! كثير من الرجال يعتقدون ذلك، في كل الدنيا، وعليك أن تعملي شيئاً لتحذري شرّه، لكن لا أدري ماذا!

لم تجب والدتي بشيء على ما قالته لها جدتي، لا بالتلميح ولا بالتصريح. وكان بينهما علاقة ودّ مبنيّة على التزام كل منهما حدّه.

أنا متأكّد، من أن جدّتي كانت على علم بكل شيء، بدون أن يخبرها أحد. كانت شديدة الذكاء، وكانت تتمتّع بحدس يذهب بعيداً في كنه الأشياء. قالت لي مرّة، عندما أثرتُ أمامها مسألة أنني وحيد، بخلاف جميع أقربائي وأصحابي، قالت: وستبقى! هذا نصيبك! ثمّ اقتربت منّي وغمرتني وشدّتني وهي تقول: تعال إلى قلبي "يا ابن أبيك!"

صارت والدتي بعدما ولدتُ، تحلم بأني أصبحت عائقاً أحول بينها وبين ابن عمّها، الذي كانت تحلم أنها تلتقي به في خيمة منعزلة عن حيّ الذي سَبَاها، وحلمتْ يوماً أنني أصبحتُ فتى في الثالثة عشرة من عمري، وأنني ارتَبْتُ مرّة بأمر هذا الرجل، فسألتُها عن هويته وعن سبب مجيئه إلى هنا، فخافت كثيراً من سؤالي ورأت فيه نذير شرّ، وباحت بخوفها إلى ابن عمّها، وقالت له لا بدّ لنا من إيجاد حيلة لمعالجة أمر هذا الفتى، وإلا حرمنا من اللقاء ببعضنا، وهذا ما لا طاقة لي عليه، فقال لها ابن عمّها وأنا أيضاً لا طاقة لي على هذا، وإنّ الموت أهون عليَّ من حرماني منك، وإني على استعداد لكلّ شيء في سبيل أن نبقى على علاقتنا، ثمّ تداولا كثيراً في الأمر لكنهما لم يجدا حلاً. وفي أحد الأيّام وكان الهمّ يكاد يُطبق عليهما، قال لها: "دعي الأمر لي وأنا كفيل بإيجاد الحلّ المناسب،" وهكذا كان، فاحتال ابن عمّها حتى تعرّف إلى الصبي (أي أنا)، وصار يتحدّث معه ويتقرّب منه حتى اطمأنّ إليه، واستطاع إغراءه يوماً بمرافقته في رحلة صيد إلى أعالي الصحارى البعيدة، وفي الليل وكانا يبيتان في خيمة واحدة، جلس الرجل ليرى ما إن كان الفتى غافياً، فنهض الصبي فوراً وقال للرجل

"لماذا جلستَ،" فقال له الرجل "سمعت صوتاً في الخارج" فأجابه الفتى "نَمْ، لا يوجد شيء في الخارج!" فاستلقى الرجل من جديد، وتظاهر بالنوم حتى يُطمئن الفتى فيغفو. وبعد فترة تناول الرجل بتروّ وهدوء شديدين قليلاً من التراب، ورماه بعيداً ليتأكدّ من أن الفتى غاف، فما كان من هذا الأخير إلا أن نهض، كما ينهض من سمع صوت انفجار قويّ، وأمسك بالرجل عند عنقه وقال له "نَمْ وإلا قتلتك!" فعدل الرجل عن مسعاه مؤقتاً وتابعا رحلتهما، إلى أن رأيا من بعيد ناراً مشتعلة، فاقتربا منها حتى استطاعا تمييز دابتين عرف الرجل مَنْ صاحباهما، فقد سبق أن التقى بهما في رحلاته في الفلاة وعرفهما عن قرب، ورآهما كيف يسعيان وراء فريستهما، حيواناً كانت هذه الفريسة أم إنساً، فهما أقرب إلى الذئاب الكاسرة منهما إلى البشر، فقال عندذاك في نفسه "ظبطت!" فلن تسنح لي مناسبة أثمن من هذه، فقال للفتى:

"اذهبْ وجئ بهاتين الدابّتين، وأنا أنتظرك هنا حتى لا يفاجئك أحد،" فانصاع هذا الفتى فوراً إلى طلب الرجل، وتقدّم بلا تردد نحو الدابتين مستهدياً بالنار المشتعلة قربهما، ولما وصل إلى هدفه انقضّ عليه رجلان ضخمان مخيفان، لكنه استطاع قبل أن يتمكّنا منه أن يقبض على رأسيهما، كلّ رأس بيد، وأن يضربهما ببعضهما ضرباً قاسياً، حتى سقط الاثنان أرضاً ميّتين، ثمّ عمد إلى فكّ رسني الدابتين، وقادهما إلى حيث ينتظره الرجل، وقال له لمّا بلغه: "خذ الدابّتين! إنك أردت الإيقاع بي، لكنك لن تفلت في المرّة المقبلة!" فيئس هذا

الرجل من المحاولة وقرّر في نفسه ألا يحاول بعد الآن، لأن المحاولة من جديد ستودي به حتماً إلى هلاك أكيد، فهذا الصبي ليس من إنس فقط، بل فيه شيء من الجنّ بلا ريب، وقرر أن يعودا، وفي طريق العودة حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد طلب الفتى من الرجل التوقّف قليلاً لأنه يريد الذهاب في غرض، أي للتغوّط، فتوقف الرجل وجلس ينتظره في ظلّ دابته، لكنّ الفتى تأخّر كثيراً في العودة، فنادى الرجل عليه فلم يُجبه، فخاف الرجل أن يكون الفتى أعدّ للإيقاع به، فنادى مرّة أخرى فلم يجبه، فتقدّم عندذاك بحذر شديد من التلّة الرملية الصغيرة التي اختفى الفتى وراءها ليقضي حاجته، ولمّا انكشف عليه مقلبها الآخر، رآه ملقىً على الأرض منتفخ الجسم ورماً، ويده مختفيةٌ حتى الكتف في وكر تحت الرمل، فتقدّم منه وهو مضطرب، وسحبه حتى بانت يده التي كانت ما زالت ممسكة بأفعى كبيرة ميّتة خنقاً! لقد عضّته الأفعى لكنه، قبل أن يقضي سمّها عليه، مدّ يده إلى وكرها وقبض عليها عند رأسها، وشدّ عليها حتى قتلها خنقاً ومات!

كانت أحلام والدتي منسوجة على طريقة أخبار العرب القدماء، وعرب الجاهليّة بشكل خاص. وكانت هذه الأخبار أكثر ما تحبّ عندما كانت تلميذة في المدرسة، وكانت تقرأها بنهم ولذّة.

لكنّ أمي وإن كانت تحلم هذه الأحلام، التي تعبّر عن رغبتها في التخلّص منّي، لم تكن تكرهني في الحقيقة، فما كانت تلك سوى أحلام لا يُسألُ عنها صاحبها، أحلام تجيئها في غَفْلة غَفْوها، نتيجة

الضغط الهائل الذي كانت عرضة له على امتداد ليلها ونهارها. كانت والدتي تعيش حياةً ليست لها، حياة لا تحبّها، كانت تعيش حياة امرأة أخرى. "كأني لست أنا!" كانت تقول لمريم، "أمّا أنا فكأنني موضوعة في خزانة على رفّ منسيّ!" ولا أدري ما إذا كانت مريم تفهم حقيقة ما تقصده أمّي، بل لا أدري ما إذا كان في استطاعتها ذلك، أن تفهم حسرتها ولوعتها وإلحاحها وحرقتها، لأن والدتي رغم حبها لمريم، وارتياحها لها ارتياحاً كبيراً، كانت تردّد من وقت لآخر "ما حدا محلّ حدا!"

كانت أمي تكره كوني ابنَ والدي وحسب، ولم تكن تكرهني بذاتي. بل كانت تحبّني بالتأكيد. ولو كنت أنا ذاتي، وكان والدي رجلاً آخر تحبّه، لما كان هناك أي مشكلة، ولما كانت حلمت تلك الأحلام المؤذية. قالت لي مرّة بعد مقتل شاب في البلدة أحزنها موته وأقلقها: "ليتك تبقى صغيراً!" لأبقى في منأى عن القتل الذي يتعرّض له الكبار لا الصغار. وكانت تهتم بي كما تهتمّ أعطف الأمهات بأولادهن وأكثر. كانت ثيابي دائماً نظيفة أكثر من جميع الأولاد الذين كنت ألعب معهم، وكان طعامي دائماً يحسدني عليه رفاقي في المدرسة، كانوا يقولون لي أحياناً بعفويّة مطلقة: "نيّالك وحيد!" وكانت كجميع الأمهات تروي عنّي أخباراً لطيفة ومضحكة، كانت تروي مثلاً أنني دخلت مرّة خلسة وراء والدي إلى الحمّام حيث كان يبول، وأدخلتُ يدي بين فخذيه وقبضت على خطّ الماء النازل منه! (لم يروِ والدي هذه الطرفة إليها مباشرة، بل سمعَتْها منه وهو يرويها

إلى جدّتي والدته) كانت تروي هذه الطرفة وتضحك من كلّ قلبها، وكانت تأخذني بذراعيها بعد أن ترويها، وتشدّني إلى صدرها وتقبّلني بقوّة. وكانت حين ترتفع حرارتي لا تنام، فتقوم بين فترة وأخرى تتلمّس جبهتي بيدها، أو بشفتيها حين لا تثق بيدها، وتتسمّع على نَفَسي ما إذا كان منتظماً أو لا، وتتأمّل لون بشرتي. كانت أمّاً لا شكّ مثاليّة من هذه الناحية. وكان بعض الجيران يمدحون فيها هذه الصفة، وكانوا يحسدون والدي عليها. وكانت تدرّسني، وكنتُ لذلك بين الأوائل في الصف أحياناً، وبين الجيّدين دائماً. كانت والدتي تجيد القراءة والكتابة، وتجيد الفرنسية أيضاً كتابة وقراءة، وتلمّ قليلاً بالإنكليزية. كانت تلميذة في مدرسة الراهبات العازاريات، تحبّ الدرس والمدرسة، وكانت دائماً أولى في صفّها أو ثانية. نجحت في السرتيفيكا من أول مرّة، وفي البريفه من أول مرّة، بعلامات جيّدة، وقتَ كان تلاميذ كثيرون يرسبون ويعيدون صفوفهم. كانت تحبّ اللغة العربية كثيراً وكانت، لولا أنها تريد أن تتقوّى بالفرنسية، لا تقرأ كتاباً إلا بها. كانت تحبّ الأخبار المأخوذة من الكتب العربية القديمة، كأخبار الكرَم والمروءة والوفاء وقصص الحبّ خصوصاً.

أمي كانت تحلم بأن تُغرم بشاب أوّلاً ثمّ أن تتزوجه بعد ذلك.

"فهل هذا كثير يا مريم! هل هذا كثيرا هل كنتُ متطلّبة؟" كانت تسكت مريم، وتسرح عيناها في الفراغ قبل أن تجيبها بِـ"وأيّ فتاة لا تحلم بذلك؟"

"إيّاك أن تتزوجي إذا لم تحبّي!" كانت تنصحها والدتي. (هل كانت والدتي تخاف أحياناً من أن تتزوّج مريم سلفَها الأصغر. لا بدّ أنّ هذا الاحتمال كان يرد على بالها، لأنها بذكائها النفّاذ كانت ترى أنّ الاثنين يتحرّكان في مساحة ضيّقة، بحيث إن لقاءهما كان وارداً جدّاً وشديد الاحتمال) "ولكنني بدأت أكبر في السن، كانت تجيب مريم، وبدأ خياري يضيق، وصرت مضطرة إلى التقليل من شروطي، وإلى إخفاض سقفها!"

"أنا قصّتي مختلفة!" كانت تتمتم أمّي، كأنْ لنفسها. خصوصاً أنها تزوّجت في عمر كان يحق لها فيه أن تكون متطلّبة، كان عمرها سبع عشرة سنة، وكانت شاطرة جدّاً في المدرسة، وكانت تعرف أخبار السينما، وأسماء الأفلام والممثلين والممثلات، وكانت تذهب مرّة في الأسبوع إلى السينما (حيث تلتقي بأنور سرّاً بالتأكيد) لا يمانع في ذلك والداها، وإن كان والدها لا يحبّذ هذا كثيراً. كانت والدتها تُسرّ حين تسمع ابنتها تلهج بهذه الأسماء الغريبة، وهذه الأخبار المدهشة. وكانت تخبر والدتها قصّة الفيلم الذي تحضره كاملة، من أوّلها إلى آخرها، وكانت والدتها تنبسط كثيراً بحيث إنها كانت تأذن لها بالذهاب أحياناً إلى السينما بدون سؤال والدها. "على شرط – كانت تقول والدتها – على شرط أن تخبريني إياه كلّه بدون أن تحذفي شيئاً." لكن والدتي كانت تسكت بالضرورة عن المشاهد الجريئة، وتكتفي منها بالقبلة وحسب. "فقبّلَها!" كانت تقول لأمها. "أمامكم!"

كانت تسأل جدّتي مندهشة إلى أقصى حدّ، ومسحورة إلى أقصى حدّ. "لم يكن يسترهما شيء عنكم؟"

وكانت والدتي تشتري مجلات تروي أخبار الممثّلين والممثلات، وتنشر صورهم التي كانت تقصّها وتزرع بها كتبها ودفاترها. أمّي كانت جميلة جدّاً وما تزال. وكان الفتى الذي أغرمت به، أنور، من نوعها على ما يبدو من حيث اهتماماته غير المدرسيّة، فقد كان يحبّ فنون السينما والصورة، وقد فتح استوديو تصوير وتظهير صور، كان يبيع فيه أيضاً مجلات فنيّة وصور ممثلين وممثلات. ويبدو أن والدتي كانت في تلك المرحلة في قمّة غرامها وجنونها به. ولا شك أن الصورتين اللتين في حوزتي، هما من تلك الفترة بالذات، فهما مأخوذتان في استوديو بلا أدنى شك، تشير إلى ذلك البرادي وراء والدتي والسجّادة ذات اللون الهادئ، وطريقة الإضاءة التي تتطلب تمديدات وتجهيزات مناسبة، وأكثر من ذلك طبيعة الوضعية (Pause) التي فيها والدتي، فهي وضعية تتطلب مكاناً آمناً يوفّر الحريّة اللازمة لاتخاذ صور من هذا النوع.

إن هاتين الصورتين اللتين معي ليستا مأخوذتين في هوليوود أو في نيويورك، أو في باريس أو في لندن، أو في أي عاصمة غربية، بل في زغرتا في أوائل الخمسينيات أو أواخر الأربعينيات! نعم! حين كان ذهاب الفتاة إلى البحر مثلاً، للّهو والسباحة والاسمرار، خارجَ عادات الناس، بل خارج تصوّرهم! وحين كانت نسوة البلدة جميعهن

ملتحفات بالثياب السوداء، لكثرة ما قُتل من شباب في حروب الثأر، التي احتدّت كثيراً واستعرت نيرانها في تلك الفترة وما بعدها بشكل خاص. بالعشرات كانت محصّلة ضحايا الثأر. وحين كان زواج الفتاة ضدّ إرادة أهلها، وذهابها "خطيفة"، يؤدّي بالأهل إلى الثورة ضد الخاطف، فيتدخّل العقلاء ورجال الدين ويُصلحون الأمورَ بما تيسّر من حلول.

تبدو والدتي في الصورتين شبه عارية!

فكيف يكون ذلك؟ فهل أغراها صديقها إلى هذا الحدّ، وأقنعها بأنه يريد الزواج بها فورَ تشاء، حتّى استسلمت له هذا الاستسلام، وقبلت أن يصوّرها شبه عارية؟ ألم تخف من أن تقع هذه الصور في يد أحد غريب أو قريب؟ فماذا كان جرى لو وقعت في يد والدها مثلاً أو والدتها، بل في يد الجيران ورفاق الحي واللعب والمدرسة؟ هل كانت والدتي Insoucinate إلى هذا الحدّ؟ هل كان والدي يدري بوجود هذه الصورة التي نقلتها والدتي إلى بيته وخبّأتها فيه؟ ألم يحدث أن فتّش والدي في تلك الأمكنة عن غرض ما فوقع عليها بالصدفة؟ أمر غريب فعلاً، ولا يكاد يُصدّق!

أم أنّ والدتي كانت، بمعنى ما انتحاريّة، غير آبهة بما قد يحدث لها، حتى ولو كان ما سيحدث لها "خراب بيتها".

أم أنها كانت تسعى منذ اللحظة الأولى إلى هذا الخراب، الذي لم يكن بالنسبة إليها خراباً، بل انفلاتاً من سجن لا تطاق الإقامة الدائمة فيه. وإلا فلا يمكن تفسير أمر هاتين الصورتين، أنْ تتركهما في البيت وإن مخبّأتين، فهي فيهما شبه عارية، بالكمبينيزون فقط، وفي واحدة منهما واقفة، وفي الأخرى جالسة على الأرض تعرض بشكل مثير عري فخذيها. (هل صوّرها صوراً أخرى أكثر جرأةً؟ كانت والدتي بالتأكيد مستعدّة لكل مغامرة معه! هل تصوّرا معاً ومزّقا الصور بعدما تفرّجا عليها، أم أنه ما زال يحتفظ بها؟)

والدتي في جنون شبابها!

لم يكن في إمكاني أن أتأمّل هاتين الصورتين طويلاً دون أن أبعد نظري ولو قليلاً عنهما، كأنّ شيئاً ما كان يدفعني إلى ذلك دفعاً. إنها والدتي بالتأكيد. فلم يكن من السهل عليّ حتى وقت قريب، أن تكون امرأةٌ والدتي! ولا أعتقد أنّ من السهل على أحد، ممن أعرف وممن أعاشر، وممن عرفت وممن عاشرت، أن تكون امرأةٌ والدتَه! ودائماً ما كنت أحار في أمر من تعمل والداتُهم في مجالات الإغراء، فأتساءل عن علاقاتهم بهنّ، وعمّا يقولون في نفوسهم وعمّا يشعرون، وهل يزعجهم هذا بالتأكيد وإلى أيّ حدّ؟

ليس في الصورتين الاثنتين ما هو عفوي غير أمّي. أمي وحدها عفوية فيهما. أقصد أن كلّ شيء فيهما مدروس سلفاً، ومقرّر مسبقاً، إلا شيئاً

ما يشعّ من والدتي بتلقائيّة لافتة. في وسط إحدى هاتين الصورتين تقف أمي وقوفاً، أراد من ذلك صديقها المصوّر المخرج، أن يُظهر كلّ قامتها التي كان يراها بالتأكيد قامة هوليوودية. أمي تقدّم صدرها، الذي يبين منه أصله، ما استطاعت إلى الأمام، (أقصد بصدرها النهدين) وتستند إلى رجل واحدة وتقدّم الأخرى كأنها تحاكي من يهمّ بالخطو، تنظر في الكاميرا مباشرة بلا تردد، وعلى سجّادة تقف وليس على موكيت. وفي الصورة الثانية تجلس على السجّادة ذاتها، يبدو ذلك من الرسوم التي هي نفسها في الصورتين. في الصورة الثانية تبدو والدتي مشعّة الوجه عامرة بالغبطة والسعادة، وكأن الجنّة وراء الباب الذي ما عليها سوى دفعه وحسب، كانت جالسة على السجّادة في وضع أراد منه المخرج تبيان كل ما كانت تبينه امرأة من مفاتن في مجلّة، في تلك الفترة. تبدو أمي منصاعة إلى هذا المصوّر المخرج بلا همّ أو شكّ أو ممانعة أو تهيّب، فقط بعض الدهشة التي تكاد تلاحظ عليها، دهشة من يُقدم ببراءة على عمل يثير الدهشة. لقد أنزل المخرج رباط صدريتها الأيسر حتى زندها، ليبيّن بذلك القسم الأعلى من ثديها، وليبدو أوّل الثلم ما بين النهدين واضحاً. وقد طلب منها أن تمدّد فخذاً وأن ترفع الفخذ الأخرى على شكل زاوية عند الركبة، وأن تشمر أسفل الكومبينيزون وتحشره بين الفخذين اللتين تبدوان عاريتين حتى أصلهما. فهل صوّرها صديقها في هذا الوضع، ليرسل هذه الصور إلى مؤسسة سينمائية ما؟ هل أقنعها باحتمال أن تُعجب المخرجين، وأن تعمل في التمثيل في مصر أو في أميركا، وفي هوليوود بالذات؟ أنا متأكد من ذلك، فما الباسبور الذي وجدتُه في أغراضها،

والفيزا التي عليه إلى مصر، إلا دليل على ذلك لا يُردّ فلماذا استصدرت أمي جواز سفر ولماذا استحصلت على فيزا إلى مصر؟ والسؤال الكبير أيضاً هو أنها كيف استطاعت أن تقوم بذلك بلا إذن من والدي، والقانون اللبناني يمنع حصول المرأة على جواز سفر إلا بموافقة خطّية من زوجها؟ فكيف تدبّرت والدتي كل هذه الأمور، ومن ساعدها على ذلك ولماذا؟ أعرف.

أعرف أن هذا الأمر لم تبح به إلى أعزّ صديقة لها مريم! لم أسمعها تتحدث عنه معها إطلاقاً، ولم يردْ على لسانها في مكان. لكنّ جواز السفر هنا بين يديّ وعليه الفيزا إلى مصر. قد وقعتُ عليه وأنا أفتش على "التختيّة" عن أشياء لي، وكانت هي في البيت، لكنها لم تأبه إطلاقاً لما قد أقع عليه، ومما يُفرض بها أن تحرص على إبقائه سرّاً لها وحدها. هذا يشبه زواجها من والدي بعد خيبتها من صديقها أنور، ويشبه صورها شبه العارية التي خبّأتها في البيت، ويشبه أنها لم تقم بمبادرة من أجل أن تشرح لوالدي أمر فقدانها بكارتها مع من سبقه، أو أن تخفي الأمر بعملية تعيد غشاء البكارة إلى وضعه السابق، وهي ممارسة كانت نادرة جداً في ذلك الوقت في بلادنا، لكنها كانت ممكنة.

أنا أعرف أنّ أنور صديق والدتي، قد هاجر إلى أميركا عن طريق مصر. لقد حاول على ما يبدو أن يجرّب حظّه في مجال السينما هناك، لكنه لم ينجح لسبب ما لا أعرفه، ربما كان الجوّ الذي أحاط بالعمل السينمائي آنذاك في تلك الفترة، فترة ما بعد ثورة يوليو وحكم الرئيس جمال

عبد الناصر. ومن القاهرة سافر أنور بالتأكيد إلى أميركا، حيث ما يزال مقيماً هناك، ويملك متجراً لا بأس به في مكان ما في نيوجرسي، حيث كان له أهل وأقارب. إنه لا يعمل في السينما في هوليوود، ولا يقيم حتّى في كاليفورنيا، لم يوفّقه الحظ على ما يبدو في تحقيق أحلام صباه وشبابه، فهل كان جمالُ والدتي هو دافعه لخوض تلك التجربة الفنيّة، ثم لمّا ابتعد عنه، أي عن جمالها، انقطع عنه الوحي، وتحوّل إلى الأمور الأخرى الأكثر دنيوية وجدّية. هل قال له أقرباؤه: "اسمع، الناس هنا يجب أن تعمل لتعيش حياة محترمة، وما عليك إلا العودة إلى لبنان، إن أردت السهر حتى مطلع الفجر والنهوض بعد الظهر، والتسلّي في هذه المجلات الغالية الثمن. اذهبْ في طريقك وحدك إن شئت العمل في ميدان آخر، أمّا نحن فهذا ما عندنا نعطيك إيّاه!"

ويبدو، بالعودة إلى جواز سفر والدتي والفيزا إلى مصر، أن أنور هو الذي قام بذلك، بالاتفاق معها بكل تأكيد. الصورة الشمسية التي على الجواز هي من عنده، من الاستديو خاصّته بلا ذرّة شكّ، فوالدتي فيها هي ذاتها كما تبدو في الصورتين الآنفتي الذكر اللتين تكلمت عليهما، قَصّة الشعر ذاتها، وعدد من الشعرات يبتعد وحده عن مجموع شعرها الذي يغطّي قسماً من جبهتها. وجرح في النيغاتيف يظهر في الصورتين معاً هُوَ ذاته كخطّ على خدّها الأيسر، والعقد الأبيض حول عنقها، وتفاصيل أخرى كثيرة لا تترك مجالاً للشك بأمر اتفاقهما على الموضوع، وأمر قيامه بالعمل نيابة عنها. أمّا الفيزا فهي من السفارة المصرية في بيروت، قد حصل عليها في الوقت الذي حصل على

فيزته هو. لقد سافر إلى مصر في الفترة نفسها التي حصلت أمي فيها على الفيزا، فهذا واضح من التواريخ التي ليست بحاجة إلى تفكير عميق وذكاء خاص. ثم سافر إلى مصر قبلها، على أمل أن يجد عملاً بالتأكيد، وليجد مكاناً لإقامتهما، فقد كان الاتفاق بلا شكّ أن يشير إليها بالمجيء حال استئجاره شقّة وفرشها فرشاً أوّليّاً. والحياة في مصر في تلك الأيام لم تكن غالية جداً، وكان هو يملك ما يسمح له بالإقامة هناك فترة لا بأس بها بلا عمل، خصوصاً أن أهله كانوا مرتاحين نسبيّاً من الناحية المادية، لكنه لم يوفّق على ما يبدو في تنفيذ القسم المتعلق بأمّي من الخطة لسبب ما، فقد تكون الرياح جرت بالنسبة إليه، بما لا تشتهي السفن.

كانت والدتي إذن مستعدّة للذهاب إلى القاهرة وموافاته هناك، وإكمال مشوار العمر معه حيثما ذهب، أو حيثما يقرّران، في القاهرة أو في أميركا. فماذا جرى حتى تصالحا بعد زواجها، وكيف كانا يتصلان ببعضهما، بأي طريقة مباشرة أو غير مباشرة؟

من المستحيل أن تكون والدتي اجتمعت بأنور بعد زواجها ولو مرّة واحدة. وإلا فأين؟ في طرابلس المدينة القريبة؟ لم تكن تذهب وحدها إلى هناك إطلاقاً. قد تكون استطاعت اللقاء به مرّة أو مرّتين، في مكان ما لدقائق، تبادلا أثناءها كلّ شيء باختصار شديد. قد يكون هذا أمراً حصل، لكنني أعتقد أن اتصالهما الدائم كان بواسطة الرسائل البريدية، فأنور كان يرسل رسائله الموجّهة إلى أمي، على عنوان صديق له مقيم

في نيويورك بلا شكّ، (لأن أكثر الظروف الموجودة عند جدّتي والدة أمّي، كانت تحمل ختم بريد نيويورك)، وكان هذا الصديق يرسل هذه الرسائل ذاتها إلى والدتي على عنوان أهلها. وكان ما يسمح بهذه الحيلة أنّ خالي المهاجر إلى أميركا، كان مقيماً في مدينة نيويورك بالذات، وكان يراسل والديه بانتظام، وكانت والدتي هي التي تقرأ لهما هذه المكاتيب، لأنهما كانا لا يجيدان القراءة ولا الكتابة. عندما كان يصل مكتوب إلى بيت جدّي ويبلغ الخبر والدتي، كانت تسرع لفضّه وقراءته. وكانت جدّتي لا تمدّ يدها إلى هذه الرسائل لأنها كانت تعتبرها شأناً من شؤون ابنتها، وكذلك جدّي الذي كان كلّ ما يعنيه فحوى هذه الرسائل وحسب، مرّة واحدة فقط، أو مرّتين إذا كانت مهمّة. أكيد كانت والدتي حين تكون الرسالة لها، من أنور، تقرأها كأنها من أخيها، فترتجل لوالديها ما تشاء وما تراه مناسباً، وكانت بالتأكيد تتدبر أمرها في حال اضطرّت إلى قراءتها مرّة ثانية.

أين كانت والدتي تخبّئ كلّ تلك الرسائل؟ هل كانت تحرقها لئلا تقع في يد أحد؟ هل كانت تحفظ ما فيها عن ظهر قلب؟

هل حفظت عناوين في القاهرة، أو أرقام هاتف، حتّى إذا ما جدّ شيء خارق أثناء سفرها، و لم يكن أنور في انتظارها على المطار، أو في المرفأ - كالعادة تلك الأيّام - أو في محطة القطار، يكون عندها مكان تأوي إليه؟

أبقت والدتي فقط على الجواز، وفي منزل زوجها، فهل ما زالت تعتقد أنه صالح لم تفت مدّته، وهل ما زالت تعتقد أن الفيزا التي عليه إلى القاهرة صالحة، وأنها لذلك احتفظت به؟ لا أعتقد أنها ساذجة إلى هذا الحد.

أعتقد أن والدتي كانت تحتفظ بهذه الرسائل جميعها، في دُرج خاص بها، في بيت أهلها، كانت تقفله وتضع المفتاح في مكان ما هناك. وما سمح لي بهذا الاعتقاد، أنّ جدّتي كانت تسمّي هذا الدرج باسم أمّي، فكانت تقول لي مثلاً، ضع هذا الغرض على الكومودينا فوق دُرج والدتك. ثمّ أحرقت والدتي جميع هذه الرسائل بعد وفاة والدتها. وكان والدها قد توفّي قبل ذلك بسنين طويلة.

بعد أن توفّيت جدّتي بأشهر، وبعدها تقاسم الإخوة والأخوات إرث الوالدين، لم يكن البيت من نصيب والدتي، فأسرّت لي بأنه لم يعد لها في هذه الدنيا مكان خاصّ بها! فأحسست بتعاطف عميق معها، وكدت أبكي، كاد الدمع ينزل من عينيّ، وأحببت أن أقول لها: "سيكون لك بيتي مكاناً لك وحدك." لكن اللحظة لم تكن تحتمل أيّ مخاطرة في الكلام.

لماذا لم تسافر والدتي، وما الذي جرى فحال دون ذلك؟ لا أعرف.

هل اضطّر أنور إلى السفر إلى أميركا قبل مجيئها إلى القاهرة؟ هل

تعرّف إلى امرأة أنْسته والدتي في المرحلة الأخيرة من خطّتهما؟ (أنور ما زال عازباً حتى الآن لم يتزوّج) هل ذهبت والدتي في سريّة تامّة، بما عليها من ثياب فقط حتى لا تلفت شنطها الانتباه، إلى بيروت، لتستقلّ الباخرة إلى القاهرة وضيّعت؟ هل خافت في آخر لحظة من هذا القفز في المجهول؟ هل غيّرت رأيها لسبب ما، وما هو؟ لم أكن أنا السبب بالتأكيد لأن عمري كان، في تاريخ إصدار الجواز، أقلّ من سنتين بقليل، أي كنت هنا على هذه الأرض عندما قرّرت والدتي السفر في سريّة مطلقة، عندما قرّرت تركي لأبي وأهله. وليس حبها لي وتعلّقها بي ما منعها من تحقيق رغبة خاطرت من أجلها مخاطرة كبرى. لقد كانت بالفعل مخاطرة كبرى، فقد زوّرت توقيع زوجها أوّلاً، ثم أرادت أن توافي أنور، وهذا هو الأمر الأخطر، عند والدي على الأقل، ثم إن كل هذه العملية التي نسجت خيوطها وحبكتها حبكاً رائعاً، كانت مؤامرة كبرى لم يعرف مثلها أحد على ما أعلم، في هذا المحيط الضيّق.

كان هدف والدتي من هذه الخطّة الكبرى، بلا شك، موافاة أنور، الشاب الذي أحبّت. لكنّ الانتقام خصوصاً كان هدفها أيضاً، الانتقام بالأكيد الأكيد، الانتقام من والدي الذي رأت أنه أذلّها الذلّ الكبير، والذي كان قاسياً عليها قسوة لم تتحمّلها، بل قسوة لا تُحتمل وحسب، أي لا يمكن أن تتحمّلها امرأة مهما كانت صبورة أو مهما كانت ميّتة النفْس. أرادت والدتي ردّ الاعتبار لنفسها بعد هذه الإهانة التي لا تحتمل.

لم أكن المستهدف لذاتي إذن، لم تكن والدتي تريد هجري بسبب كرهها لي، بل كنت أنا ضحيّة لا بد منها، كنت الضرر الذي لا مهرب من إحداثه حتى يمكن أن تنجح الخطّة. فهل كانت والدتي ستنساني نسياناً نهائياً، كأنني لم أكن يوماً، وهل كانت ستنجب أطفالاً آخرين غيري، تهتم بهم عن حبّ حقيقي صاف، لا يشوبه شعور بالظلم أو بما يشابه ذلك من مشاعر كانت تتآكل عمرها؟

"ما حدا محلّ حدا!" كانت تقول والدتي لمريم من وقت لآخر. كانت والدتي تحترق أجوافها إلى هذا الحدّ إذن! إلى حد أن تنسج مع أنور خيوط هذه المؤامرة الكبرى، خيطاً خيطاً في سريّة مطلقة. وقد أبقت على السرّ في قلبها حتى النهاية، حتى الآن، لم تبح به إلى أحد، حتى إلى مريم، أقرب الناس إليها وأعزّ صديقة لها.

فماذا كانت مريم قالت عنّي لو كانت على علم بما خطّطت له والدتي؟ هل كانت نظرت إليّ بمزيد من الشفقة. وطرف الشفقة يلامس طرف الاحتقار.

إنه أمر غريب ألا تبوح والدتي إلى مريم بهذا السرّ. فهل خافت أوّلاً أن تبوح به إليها، ثمّ انتظرت ظروفاً أكثر مؤاتاة، ثم بدأت تظهر إشارات تدبير زواج مريم بسلفها الأصغر، مما جعلها تعدل نهائياً عن البوح؟ أم أنها أرادت بالحفاظ عليه الحفاظَ على إمكانية المغامرة في كلّ حين،

والذهاب بعيداً حين تتوافر الشروط وتسنح الظروف. يبدو أنّ هذا الحلم كان علاجاً لها ضد التوتّر والسويداء، والكآبة والإحباط، وكان وهماً جميلاً لا يمكنها التخلّص منه، بل كان عليها ألا تتخلص منه، وأن تبقى محافظة عليه بجميع الوسائل حتى تبقى محافظة على توازنها العصبي.

كانت والدتي تتعذّب كثيراً في داخلها، لكنها مسؤولة لا شكّ عن هذا العذاب في قسم منه على الأقل، فهي التي أوحت إلى والدي بمعنى ما أن ينتهز الفرصة "الآن!"

والدتي هي التي استدعت من والدي هذه المبادرة، أي طلب يدها بإلحاح "الآن!"، أي فوراً وبلا انتظار أو إضاعة وقت. أنا أؤمن بذلك، أقصد بهذا النوع من الاستدعاء. كل إنسان يستدعي "مشاكله" بمعنى ما، أعرف ذلك من سلوى بشكل خاص، فسلوى تستدعي نوعاً من المشاكل، هو ذاته في كلّ مرة، وبالطريقة ذاتها تقريباً. قالت لي مثلاً، على سبيل التذمّر والاشمئزاز، أن ابنَ ناطور البناية حيث تسكن، كتب لها رسالة غرام مرّة. تسمّيه ابن ناطور البناية ولا تقول اسمه أبداً وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ويصغرها بعشر سنوات. ثم قالت لي بعد فترة أنه كتب لها رسالة أخرى، وجدتها "اليوم" على زجاج سيارتها تحت المسّاحة. قالت: قرأتُها قبل أن أدخل إلى السيارة، ثم تلفّتّ لأرى ما إذا كان واقفاً هناك يراقبني من مكان ما. لم أقل لها: لو شئت فعلاً ألا يكتبها لك، لكنت تناولتها عن زجاج سيّارتك، كما

تتناولين ورقة وسخة مليئة بالمخاط والبصاق، ورميتها على الأرض دون النظر إليها أو إليه. فكيف بقراءتها في الخارج على الطريق، حتى يتأكّد من أنها وصلت. أنت أرسلت له رسالة جوابيّة قلت له فيها: وصلت رسالتك، وما عليك الآن سوى الانتظار، لترى ما يكون عليه ردّ فعلي، أو المبادرة من جديد على طريقتك الخاصة، إن كنت لا تستطع الانتظار. لم أقل لها ذلك. يحدث دائماً لسلوى أشياء من هذا النوع، من نوع أنها عرضة للإلحاح من قبل المريدين، بينما هي بريئة لا مأخذ عليها، ولا لوم ولا عتب.

والدتي هي التي استدعت والدي ليطلب الزواج منها فوراً. أدرك والدي، على الحارك، أن بينها وبين أنور أزمةً حادّة، رأى ذلك في انشغال عينيها، واضطراب ثقتها بنفسها، فكلّمها كالعادة في أمور عامّة، وكالعادة كلّمها وهو مستعدّ في كل لحظة للانتقال إلى ما هو أهمّ، إلى الجوهر، ما إن تفسح له في المجال، فأفسحت له والدتي في المجال، فاحتلّ الفسحة الجديدة فوراً، ثمّ تطور الحديث سريعاً، ونحا كما تريد له والدتي أن ينحو، وجرى إلى حيث تريد منه والدتي أن يجري، أي إلى وضع تغيظ فيه أنور حتى الألم، إلى إيلامه ألماً لا يُنسى. قال لها والدي: "ساعة تريدين! بل فوراً إن شئت!" قالت: "فوراً!"

أرادت والدتي، في لحظة غيظ شديد من أنور، أن تدمّره بدون أن تحسب حساباً للعواقب الخطيرة، بل المأساوية، التي سيكون عليها تحمّلها.

وكانت والدتي لا شكّ، تظنّ أنها ستبقى دائماً سيّدة الموقف، عندما يتعلّق الأمر بها وبوالدي. لم تتصوّر أن الموقف قد ينقلب رأساً على عقب، وأنّ من ينتظر إشارة منها اليوم ليبادر إلى تنفيذ رغبتها، قد يسمّم غداً أيّامها حتى آخر العمر. فهل كان هذا التصرّف عائداً إلى صغر سنّها، وقلّة تجربتها، ففي هذا العمر يميل الإنسان إلى الاعتقاد، أنّ كل ما هو على قشرة الأرض دائم باق كما هو.

لم تكن تظنّ والدتي إطلاقاً، أن والدي قد يتصرّف معها بهذا الشكل العنيف والقاسي والصارم. كانت تعتقد أن سعيه وراءها بلا كَلَل لمدّة سنوات، لا يوفّر أثناءها حيلة من أجل استمالتها، ومن أجل إقناعها بالزواج منها، سيمنحها سلطة دائمة عليه. وقد اعتبرت في حساب عفويّ، أنّ هذه الجهود التي بذلها إشارة أكيدة وكافية، إلى أنه لن يقوم بأيّ عمل أو مبادرة تسيء إليها، أو تزعّلها. وهكذا تزوّجت منه في لحظة يأس صبياني عابر، وفورة غضب. هيك Sur un coup de tête!.
وكان هو في انتظارها كعادته، لا يرجو أكثر من رضاها عليه وقبولها به.

لماذا لم تتزوّج أنور الذي أحبّته، وما الذي جرى ومنعها من ذلك. كانت قليلة الكلام على هذا الموضوع، لكنها كانت تردّد لمريم أنها أعلنت له استعدادها للسفر معه إلى أميركا حيث كان يخطّط للذهاب، وأنهما اتفقا على السفر بعد زواجهما. فما الذي جرى

ومنعها من ذلك؟ هذا سؤال أساسي جدّاً.

لم يكن هناك سبب خارج عنهما ليمنعهما من الزواج ببعضهما. لم يكن أهل والدتي، أقصد والديها ليقفا ضد هذا الزواج، حتّى ولو أرادا، ولا كذلك أهل أنور. وحتى في حال ممانعة الأهل فلم يكن هذا عائقاً لهما. كانت شخصيتهما أقوى. لذلك فإن السبب كان فيهما وبين بعضهما، فما هو إذن؟

أمّي امرأة فخورة جدّاً بنفسها، سيّدة، لا تقبل بضيم. ومن صفاتها أنها تنكسر ولا تلين. خصوصاً أنها من النوع الذي يرى من حقّه الطبيعي أن تبتسم له الحياة، وأن تعطيه ما يستحقّ: فهل قال لها أنور، على سبيل الممازحة، عندما كانت تعلن له استعدادها للسفر معه، "حدا بيروح عَ- المطعم وبياخد أكلو معو!" هل أثارها هذا القول وقرّرت بعده الزواج من والدي، الذي كان يقرأ جيّداً كل ما يجدّ معها قراءة سليمة. هل أحسّت بالإهانة من ممازحة أنور لها.

كان أنور يحلم دائماً بالسفر إلى أميركا، ودائماً عن طريق مصر. وكانت والدتي تشاركه هذا الحلم، الذي كان على ما يبدو موضوع كلام دائم بينهما، ولا شكّ أن الكلام عليه تطوّر إلى التخطيط لتحويله واقعاً معيشاً. وكان الاتفاق بينهما، (أو كان اشتراط والدتي؟) أن يتزوّجا هنا ثمّ يسافرا معاً، فهل أحسّت أنه يسعى ليسافر وحده؟ هل علمت أنه يحاول الحصول على جواز سفر خاصّ به وحده؟ هل

قرَّرتْ بعد ذلك أن تحرق نفسها حتّى تبلغه نارها، ويحترق معها، بما أنها لا تستطيع الوصول إلى مبغاها معه. لماذا حين كانت والدتي تخبر مريم عن هذه المسألة كانت تبدو غامضة؟ هل مازحها وقال لها ما معناه أنه من العبث الذهاب برفقة امرأة إلى أميركا، حيث المرأة حرّة كالرجل، هل قال لها ذلك أم لا؟ وهل قاله بعد أن اكتشفت ما جعلها تشتبه في أمره، أم قبل أن تكتشف شيئاً مما جعلها تضاعف انتباهها؟ تروي والدتي ما قاله أنور، وكأنه استنتاج منها وحسب، لا كلام صريح صدر عنه. لا شكّ أن أنور بعبارة كهذه أبدى تردّداً، أو أظهر أمراً يخفيه، بالنسبة إلى سفر والدتي معه إلى أميركا. فهل كانت العبارات التي من هذا النوع، تتردّد على لسانه من وقت لآخر، حتّى استقرّ الشكّ في قلب والدتي؟

كان أنور بالنسبة إلى والدتي الهدفَ الأخير بالتأكيد، وكان تحقيق هذا الهدف كافياً ليبلغها السعادة، لكنها كانت تريده كلّه من الداخل، من الأعماق، من أوّل اليوم الذي وُلد فيه، و لم تكن على استعداد للمساومة على ذلك. كانت مغرمة به، لكنها كانت في الوقت نفسه ترفض أن تعطي وحسب. كانت مغرمة به إلى أقصى حدّ، وكانت على استعداد للذهاب معه إلى أقاصي الأرض، لكنها في الوقت نفسه، لم تكن ككثير من النساء تكتفي بأن تكون وقوداً للرجال. كانت علاقة بين اثنين ندّين. و لم يكن في وسعها أن تتنازل عمّا كانت تعتبر نفسها جديرة به، وعما كانت تعتبره حقاً لها بغير منّة أو رحمة أو شفقة خصوصاً.

لكن خطأ والدتي القاتل، ربما كان أنها اعتقدت دائماً وبإصرار، أن ما تريده يجب أن يكون. يجب أن تحصل عليه. وأن ما تعتقده حقّاً لها يجب أن تناله، وأن ما هو جدير بها هو لها.

أعتقد أن حسّها بالعدالة وبالحق أعماها عن حقيقة هذه الدنيا، فدفعت بسبب ذلك كثيراً وغالياً، وجعلت غيرها يدفع.

ثم، وهذا ربما كان سبباً آخر أدّى بوالدتي إلى أن تركب رأسها، وتتزوّج عن غيظ وبلا وعي ولا حسبان، ثمّ لم يعترف أنور لوالدتي صراحة إطلاقاً، أنه هو الذي رمى الورقة الشهيرة إليها، عندما كانت تتحمّم في بيت أهلها، عندما كانت صبيّة. وهذا ما كانت تعتبره دليلاً على أنها لم تكن بالنسبة إليه، كما كانت تريد أن تكون، لم تكنْ حبّه الأول، ولا هدفه الأخير، حتى وإن كان يسعد معها ويلتذّ حين يلقاها (ها أنا أسعد مع سلوى وألتذّ بلقائها، دون أن تكون هدفي الأخير، بل إني قادر على التخلي عنها ساعة أشاء!) كان يمالئها ويراعيها حين تسأله عمّا إذا كان هو الذي رمى لها الورقة. بل كان يراوغ. كان يجيبها بسؤال، كان يقول لها مثلاً "ومن يكون إذن مُلقيها إذا لم أكن أنا!"

لكن السؤال الذي يُفضي، على ما أعتقد، إلى جوهر الموضوع، هو لماذا كانت والدتي تصر هذا الإصرار الغريب، على أن يكون أنور هو

الذي ألقى لها بالورقة! لماذا! أنا أفهم أن تريد أن يكون أنور الفاعل، وأفهم هذه الرغبة أو هذه الإرادة، لكن الإصرار إلى هذا الحدّ، ورفض الأخذ بالواقع إلى هذا الحدّ، بل تزوير الوقائع من أجل خلق حقيقة أخرى فهذا أمر يثير العجب.

كل الدلائل التي وقعتُ عليها، والتي استطعتُ جمعها، تشير إلى أن تلك الرسالة لم تكن من أنور، بل كانت من والدي، وهذا يفسّر كثيراً مما جرى في ما بعد من أشياء، وهذا يفسّر ربما إلقاء والدتي نفسها بهذه الطريقة في حضن والدي. لكنّ والدتي كانت ترفض هذه الدلائل جميعها، وتعتبرها سخافات لا قيمة لها إطلاقاً، وكانت لا تحبّ أن يأتي أحد على ذكرها أبداً، وإذا ما جاء على ذكرها أحد – أي مريم وقبلها جدّتي – تغضب غضباً شديداً.

لا تستطيع والدتي أن تتحمّلَ وجود إنسان يقول بعكس ما تدّعيه في هذا الموضوع.

لا أدري لماذا كانت والدتي (وما تزال) مصرّة على رأيها، رغم أنّ كلّ شيء يعاكس هذا الرأي، لماذا تريد والدتي أن يكون أنور أحبّها منذ اللحظة الأولى، أي منذ تفتّحت عيناه على الحبّ. ولماذا تريد أن يكون هو من ألقى لها الورقة، من نافذة الحمّام، وليس والدي أو أي صبيّ آخر من أترابها.

كانت تروي والدتي قصة الورقة، كأنها قصّة حبّ مخصّصة لتكون فيلماً سينمائياً، كانت ترويها لتكون قصة حبّ جميلة، أو قصّة حبّ جميل، والويل الويل لمن يعرقل مسيرة روايتها! والويل الويل لمن يعرقل قصّة حبّها، قصّة حياتها!

كانت أمي في الخامسة عشرة من عمرها، وكانت تغتسل في الحمّام، وكان للحمام طاقة صغيرة تطلّ على فسحة من الأرض وراء البيت. وكان الوقت عصر عطلة مدرسية، وفجأة وقعتْ من الطاقة ورقةٌ على الأرض فنقزت أمي واضطربت، ثم انحنت لتلتقطها قبل أن يبلّلها الماء، فتناولتها وخبّأتها فوراً بين ثيابها النظيفة الموضوعة بعيدة على كرسي، ثم تابعت الاغتسال، لكن بسرعة، ثم بعد أن انتهت ولبست ثيابها، فتحت الورقة وهي على شيء من الارتباك وقرأتْ:

"أحبّك. البسي غداً للمدرسة فستانك الأصفر!"

فاضطربت من الفرح، من وقع هذه المفاجأة الجميلة التي لا تحلم إلا بمثلها، فضمت إلى صدرها الورقة وأغمضت عينيها، في حركة كما في السينما. أمّي خُلقت للسينما، جسداً وروحاً، لتكون ممثلّة أو مخرجة أو كاتبة سيناريو، أو شيئاً من هذا.

كانت والدتي دائماً، عند وصولها إلى هذه النقطة من خبريتها، تُحاكي كأنها تقبض بيدها على ورقة تحوي كنزاً، وتضمّها بحنان

إلى صدرها وهي تدور على نفسها.

ثم انتبهت والدتي فجأة إلى الاسم، فتذكّرت أنها لم ترَ الاسم، فتطلعت في الورقة من جديد فلم تجد اسماً، فقلبتها على قفاها فلم تجدْ اسماً. لم يكن على الورقة أيّ إشارة إلى كاتبها ومرسلها، و لم يكن عليها أثرٌ تستطيع أن تستدل به عليه، لكنّ هُوية المرسل لم تشغلها في الحقيقة كثيراً، لأنها كانت مقتنعة بأنه سيظهر عاجلاً جداً، وكانت متأكّدة من أنه سيكون واحداً من هؤلاء الذين تشعر أنهم ينظرون إليها نظرات تحمل معنى، وخصوصاً أنور، الذي يكاد يأكلها بعينيه في هذه الفترة الأخيرة. كانت تحسّ بنظراته تملؤها غبطة واضطراباً أكثر من أيّ من الآخرين. أمّا حَمَدْ والدي، فلم يخطر على بالها إطلاقاً، لأنه ليس بحاجة إلى أن يتّبع هذا الأسلوب، فهو يستطيع أن يراها ويكلّمها ساعة يشاء، فهو جارٌ وقريب، ثم هو يعرف بيتها جيّداً، ويعرف ما فيه وما ليس فيه، ويعرف خصوصاً ما عندها من فساتين وما ليس عندها!

يعرف حمد ألوان فساتينها، وهذا أمرٌ شديد البساطة غير معقّد على الإطلاق، لأنّ عددها بسيط جدّاً، أقلّ من عدد أصابع اليد الواحدة.

وخوفاً من أن يكشف هذه الرسالة أحدٌ، وضعتْها والدتي في مقعدة الحمّام، وأجرت وراءها الماء، لكنها قبل أن تبادر إلى ذلك أعادت قراءتها، وتأمّلتها حتى انطبعت في ذهنها بكل تفاصيلها إلى الأبد. أرادت والدتي التخلّص منها كي لا تقع في يد والديها، وخصوصاً

في يد والدتها التي لا تجيد القراءة، والتي ستذهب بلا ريب، إلى واحد أو أكثر من الذين يقرأون في الحيّ لتطلب مساعدتهم، وستتحوّل هكذا قصتها الخاصة، إلى قصّة يلهج بها الناس جميعاً في كل البلدة. ثم خرجتْ من الحمام وهي تحاول السيطرة على اضطرابها، حتى لا يفتضح أمرها.

في صباح اليوم التالي لم تلبس الأصفر بالتأكيد، فهذه مسألة خارجة عن البحث !Et pour cause.

لم تقل والدتي لمريم لماذا لم تلبس فستانها الأصفر في اليوم التالي، بل بالأحرى لم تعترف لها لماذا لم تلبس فستانها الأصفر، مع أنها أخبرتها أنها اعتنت بمظهرها كثيراً، وأنها وقفت طويلاً أمام المرآة، وبدّلت ثيابها مرات عديدة، مما أثار انتباه والدتها التي قالت لها ممازحة:

- بعد بكّير يا بنتي، بعد بكّير!

- بكّير على شو؟ أجابت والدتي مدّعية أنها لم تفهم شيئاً من مداعبة والدتها.

وحين خرجتْ أمّي إلى المدرسة، تبعتها والدتها إلى الباب، حيث وقفت على عتبته تتأمّل ابنتَها وهي ذاهبة إلى المدرسة، وهي نادراً جداً ما تفعل ذلك، وتبعها الوالد الذي تعجّب من تصرف زوجته،

فسألها عن معنى هذا التصرف فقالت له:

- كبرت بنتنا!

فكادت عند ذلك والدتي تنظر إلى الخلف، لتتأكد بعينيها مما سمعته بأذنيها. لم تكن تتوقّع أن تكون والدتها على هذه الدرجة من اليقظة تجاهها.

فهل أجمل من هذه القصّة كما ترويها والدتي؟

ولو كانت والدتي ترويها لتكون قصّة جميلة وحسب، أي إنها لو كانت لا يهمّها أبداً أن تكون صحيحة أو حقيقة، لكان كلّ شيء في مكانه، ولكان كل شيء في تمامه، ولكان كلّ شيء عال العال! لكن،

لكنها ترويها على أنها حقيقة واقعة، على هذا الشكل تماماً. وتنسى أن هناك أسئلة خطيرة، لا يمكنها الإجابة عنها إن أصرّت على روايتها هذه، وعلى تقديرها هذا للأمور.

مثلاً:

لماذا لم تخبر والدتي مريم، بالسبب الحقيقي لعدم لبسها فستاناً أصفر، ولماذا حين علمت مريم من جدّتي بالسبب الحقيقي، وجابهت والدتي به، ثارت والدتي غضباً على هذا الزعم، وأنكرت أن يكون

الأمر كذلك. كانت تكرر دائماً حجّتها هذه:

"حمد كان يعرف بيتنا جيّداً، كان يدخل إليه ويخرج منه متى يشاء، فهو قريب لنا، بينما أنور لم يحطّ رجله ولا مرّة عندنا."

وكانت تعتبر أن هذه الحجّة كافية لإيضاح كل إبهام.

ثمّ إن والدتي، بعد الاشتباك الخطير الذي جرى في المدرسة، والذي كان سببه تلك الورقة بلا شك، بادرت إلى إخبار والدتها بما جرى، وباحت لها بكلّ شيء، كأنها تُنزل عن ظهرها حملاً ثقيلاً. يبدو أنها خافت من تطوّر الأحداث، فهي قد أدركت أن سبب الشرّ في المدرسة، ليس خلافات عائلية تقليدية، ولا خلافات من نوع آخر، بل توتّر شديد بين أنور وحمد بسببها، وهو سبب لا يُقال ولا يبرهن، بل يُدرَك بحاسّة ما، هي الحدس ربما، أو هي شيء ما يشبه الحدس ومن نوعه. لم تقل لوالدتها طبعاً ما تدركه في أعماقها وما تعرفه جيداً، بل أخبرتها قصّة الورقة وحسب.

تقول والدتي إن ردّ فعل والدتها على إخبارها بالورقة كان هكذا:

"أحبّك، البسي غداً للمدرسة فستانك الأصفر!" "شو يعني؟" قالت والدتها مأخوذةً بهذا الكلام الذي نقلها إلى عالم آخر مختلف، لم تعتَدْ عليه إطلاقاً. ثم أضافت:

- هذا كلّ شيء؟
- هذا كلّ شيء! قالت والدتي.
- وابن من هذا؟
- لا أعرف! لم يذكر اسمه ولم يذكر شيئاً!
- والورقة؟
- رميتها في الحمّام وأجريت وراءها الماء.
- أكيد عرفت قريتيها، كنا فرجيناها لحدا بيعرف يقرا منيح.

هذا بالضبط مَا كانت تخشاه والدتي، أن تُقرئها والدتها لأحد من الذين يقرأون، وكانوا في غالبيتهم شباباً ذكوراً، وهي لهذا السبب تخلّصت منها. لكنها كانت دائماً تتمنّى لو أنها احتفظت بها، لتبرهن فقط لمريم أنها كُتبت بخطّ لا يشبه في شيء خطّ حمد.

- ولو! قالت والدتها بعتب.

بعد ذلك خرجت والدتها وحدها إلى الحمّام، ونظرت جيّداً في نواحيه كأنها تأمل الوقوع على الرسالة، وكان مضى على الحادثة وقت طويل، ثم تطلعت إلى الطاقة التي ألقيت منها، وتأمّلتها وفكّرت، ثم وضعت كرسيّاً وقفت عليه، ورفعت جسمها لتستطيع النظر من الطاقة إلى الخارج، لكنها لم تتقدم خطوة في هذا الاستقصاء.

وفي اليوم التالي، رافقت الوالدة ابنتَها إلى المدرسة، فسألها زوجها باستغراب لمّا رآها تخرج معها:

- لَوين؟

- راجعة!

فاغتاظ من جوابها، لكنه اكتفى بأن صرخ بأعلى صوته، وهو يستدير على نفسه ليعود إلى الداخل:

- يا هُوْ!

وفوجئت أمي كثيراً بردّ فعله هذا، فقد توقّعت منه أن يضرب أمّها، أو أن يمنعها من الذهاب، أو على الأقلّ أن يجبرها على أن تقول له أين هي ذاهبة.

لم تمش والدتها معها إلى جانبها، كما تمشي أمّ وابنتها وهما ذاهبتان معاً إلى المكان نفسه، بل مشت وراءها وراقبتها من بُعد. كانت تنظر إليها وإلى ما حولها (خصوصاً إلى ما حولها) بطرف عينها، وكانت تلعن الساعة التي وضعت فيها ابنتها في هذه المدرسة. فوالدتي كانت في مدرسة الراهبات، ثمّ رأى والدها ووافقته والدتها، أن تُنقل البنت إلى المدرسة الرسمية المجّانية، التي بدأت تقبل البنات، لأنّ دفع الأقساط عنها في مدرسة خاصة أمرٌ لا لزوم له، خصوصاً وأنها إن نجحت أو

رسبت فلن تتابع دراستها. ثم دخلتْ جدّتي إلى المدرسة واتجهت فوراً إلى الإدارة، تريد أن تعرف أسماء جميع التلاميذ الذكور.

تروي والدتي هذه المراحل من القصّة ببراءة لافتة، أقصد مثيرة للأسئلة والظنون. ترويها وكأنّها غير دارية بأنّ والدتها انشغل بالها كثيراً، لأنها ربطت فوراً، بشكل غريزي ربما، بين هذه الرسالة والشرّ الذي جرى في المدرسة. لأنّ هذا الشرّ لم يبقَ أحد لم يدرِ به، وظلّ حديث الناس فترة طويلة، بل كان من الحجج التي صارت تقدّم في ما بعد، لتدعيم الرأي القائل بإحداث مدرسة ثانية تخفّف من وجود الناس (يقصدون العائلات المتصارعة) في المكان الواحد. ذهبت جدّتي إلى المدرسة لانشغال بالها على الوضع برمّته. أرادت أن تتأكد بنفسها مما يجري، ومن خارطة الأشياء هناك، لم ترتح جدّتي إطلاقاً لهذه الخبرية فذهبت إلى المدرسة.

"مين في صبيان مع بنتي بالصف؟" بادرت مدير المدرسة هكذا بهذا السؤال بعدما استدلّت على مكتبه، وسط دهشة التلاميذ الذين يعرفونها أمّ مَنْ، ففوجئ المدير بهذا السؤال، وبهذه العجلة التي تبديها هذه الزائرة على غير عادة ولا موعد، فهي لم تنتظر أن يقوم بواجبه نحوها، كأنْ يتأهلّ بها، وأن يقول لها تفضّلي، وأن يقترح عليها فنجان قهوة، خصوصاً أنه يعرفها، ويعرف زوجة من هي، ويعرف زوجها أيضاً، ويعرف كلّ قصص عائلتها وقضاياها، فهو إن لم يكن من البلدة فإنه يقيم فيها من زمان، ويعمل مديراً لإحدى مدارسها، وهو حين

عُيّن مديراً لها قبلت به جميع الأطراف، كشخص لا مصلحة له مع أحد ضدّ أحد، أو مع طرف ضد طرف. وقبل أن يجيبها بشيء نهض عن مكتبه، وأغلق باب المكتب، بعدما طلب من الأساتذة الذين اقتربوا منه ليستطلعوا أمرها، أن ينصرفوا إلى أعمالهم، ثم توجّه إليها وقال:

- هل أساء التصرّف معها أحد؟ هل أزعجها أحد؟

- لأ ما حدا زاعجنا بشيء، ولكن أبوها يريد يطَمّن بالو.

وقبل أن يتناول المدير دفتر الأسماء في صف ابنتها، طلب منها أن ترتاح على كرسي، وسألها إن كانت تريد فنجان قهوة أو شاي، فشكرته معتذرة بانشغالها وضرورة عودتها سريعاً إلى البيت، وظلّت واقفة لا تستطيع الجلوس.

قرأ لها المدير أسماء جميع الصبيان الذين في صف ابنتها، (كان اسم أنور بينهم واسم حمد والدي)، ثم قرأ أسماء الذين في الصف الأدنى، فلم يبدُ عليها أن اسماً بعينه شدّ انتباهها بشكل خاص، (هذا ما تقوله والدتي أو بالأحرى تدّعيه!)، فزادت حيرتها، وبدا ذلك للمدير بوضوح فانشغل باله هو أيضاً، وهو بشكل خاص، لأنه أكثر العارفين بوضع المدرسة الشديد الحساسية والدقة، كمكان يلتقي فيه التلاميذ المنتمون إلى كل عائلات البلدة. و لم تمضِ أشهرٌ بعدُ على الصدام بين التلاميذ من عائلة والدتي (أي من عائلة حمد والدي) والتلاميذ من

عائلة أنور، حيث ضربوا بعضهم بالأيدي حتى الموت، كان الواحد منهم يضرب الآخر بيده الضربة القاضية، أي بكل ما فيه من عزم وكره وخوف. كان مشهداً ارتعب منه المدير بالذات، إذ كانت هذه أول مرة يرى أحداً يضرب أحداً آخر بيده ليقتله. تحوّلت دار المدرسة في هذه الأثناء إلى حلبة كبيرة، يتحلّق حولها التلاميذ وفي وسطها المتقاتلون. وقد حاول المدير والناظر وبعض الأساتذة التدخل أوّلاً، لكنهم فهموا سريعاً أنهم بتدخّلهم لا يقومون إلا بتعريض أنفسهم للخطر الفعلي، فابتعدوا حائرين، لكن المدير فطن فوراً إلى أن الحالة تستدعي استقدام الدرك على الفور لإيقاف الاشتباك، ولرفع المسؤولية عنه وعن الأساتذة، خصوصاً إذا ما تطور الأمر ووقع أذى أخرج الأمر من نطاق المدرسة. وقُبيل أن يصل الدرك انفضّ المشتبكون عن بعضهم، فقد أعلموا بقدومهم من قبل تلاميذ آخرين، لكن ما حدث لم يكن ليخفى على أحد، خصوصاً على الدرك الذين كانوا يعرفون جيّداً مدى خطورة الخلاف بين عائلات البلدة، فأصرّوا حفظاً لماء الوجه، على أن يُسلّم إليهم "المسؤولون" عن هذا الحادث، فسُلّم إليهم تلميذان من كل جانب، بعد مفاوضات طالت بين أخذ وردّ، بين الدرك والمدير والتلاميذ. كان المدير يُنكر معرفته بالبادئ أو بالمتسبب، وكان التلاميذ يختبئون وراء صمتهم، ويُنكرون أنهم رأوا من كان السبب أو من كان البادئ. ولم يكن الدرك يريد القبض على جميع المشتركين في الحادث، لأنهم كثر أوّلاً، ولأنّ هذا قرار لا يمكنهم تحمّل مسؤوليته ثانياً. أما التلاميذ الذين سُلّموا فكانوا صغاراً في السنّ لم يشاركوا في الاشتباك بمستوى الكبار وفاعليّتهم، فرضي بهم الدرك

كحلّ للمشكلة، وحملهم معه في سيارة الجيب، وأرخى سبيلهم بعد وقت قصير، وسُلّموا إلى نسوة غير أمهاتهم اللواتي لم يأتين إلى المخفر، خوفاً من أن يحتككن ببعضهن فيكبر الشر. جدّتي والدة أمّي هي التي ذهبت لاستلام الأخ الأصغر لحمد والدي.

أنور كان بين المتقاتلين، وحمد كان بين المتقاتلين، بل بدأ القتال بهما، وقد ضربا بعضهما ضرباً صريحاً واضحاً فعّالاً، بلا رحمة ولا حذر.

مدير المدرسة كرّر عليها السؤال، عمّا إذا كان جرى لابنتها شيء ما أزعجها، فكررت له أنْ لا، وأكّدت له أن كلّ ما في الأمر، هو أن أباها يريد فقط أن يكون باله مطمئناً من جهة ابنته:

- بتعرف يا أستاذ أنو نحنا عندنا ظروف!

- أكيد! أكيد! كرّر المدير بلا اقتناع.

وقفت جدّتي غير بعيدة عن باب المدرسة عند وقت الفكّة، بعد الظهر، تراقب التلاميذ الذكور واحداً واحداً، فلم تستطع الشكّ طويلاً بواحد بعينه، فعادت خائبة، وجرت بلا عجَلة وراء ابنتها التي خرجت من المدرسة بدون أن تلاحظ والدتها.

لم تخبر والدتي صديقتها، أن والدتها جدّتي قالت لها إنها شكّت

بحمد. لكنها اعترفت لها بذلك، بعدما جابهتها مريم ذات يوم بما باحت جدّتي لها. قالت جدّتي لمريم إنها شكّت بأن حمد هو الذي أرسل لها الورقة، وقالت لها إنها فوجئت عندما قرأ المدير اسم حمد، وهو يقرأ لها الأسماء:

"حمد في صفّها!" قالت بدهشة لم تستطع السيطرة عليها. (لم تأتِ على ذكر أنور)

فاستغرب المدير جهلها بوجود حمد في صفّ ابنتها، واستغرب ردّ فعلها، لكنّ جدّتي تظاهرت بأنّ الأمر طبيعي جدّاً، وأنْ لا شيء يثير استغرابها أو دهشتها. لكنها باحت لمريم في ما بعد أن النار اشتعلت في قلبها! فهي تعرف أنّ حمد قاس وعنيف، وتعرف أنه يميل إلى ابنتها. تعرف ذلك من نظرته إليها حين يأتي إلى البيت، ومن أسئلته القلقة عنها حين تكون غائبة، رغم ادّعائه بأنه يسأل عنها هكذا لا لسبب بعينه. وقد رأته عندما ذهبت إلى المدرسة تستطلع ما يجري، وتتأكّد من خارطة الأشياء:

– رأيت حمد فحادَ عنّي و لم يكلّمني، كأنه مخجول! أحياناً أقول إنه هو!

واغتاظت والدتي عندما سمعت والدتها تخبرها بكل هذه المبادرات التي تقوم بها، وعاتبتها قائلة:

- ولماذا أنت مهتمة بهذا الأمر إلى هذا الحدّ؟ إنه أمر يخصّني وحدي!

فهزّت والدتها برأسها و لم تجب. ثم أضافت والدتي:

- وما علاقة حمد بالموضوع؟

فهذا بالضبط ما كان يؤلم والدتي، ويثير غيظها، فحمد في رأيها يجب استبعاده تماماً، ويجب عدم إدخاله في هذا الموضوع الذي لا يعنيه.

- حمد عينُه عليك، أجابتها والدتها، أرى في نظرته إليك إعجاباً. أنا حاسّة أنه يريدك. لكن يبدو عليك أنت أنّ عينك غير محل.

- أنا أعرف مَنْ! قطعت والدتي بوح والدتها بما عندها عن الموضوع.

فقالت والدتها:
- مَنْ؟

قالت والدتي:
- أنور!

فسكتت جدّتي و لم يبدُ منها أي ردّ فعل إطلاقاً، كأنها لم تسمع شيئاً.

ثمّ بعد ذلك، "راحت السكرة وجاءت الفكرة" كما يقول المثل، أي إن والدتي صَحَتْ من حلمها، وتنبّهت إلى أنها تتعامل مع ما تشتهي كأنه حقيقة واقعة، وأن هذا لا يمكن أن يدوم للأسف إلى الأبد. فأين إذن هذا الفستان الأصفر الذي يريد منها كاتب الرسالة أن تلبسه؟

"راحت السكرة وجاءت الفكرة"، فقد أخرجت ثيابها كلّها من الخزانة فلم تعثر على فستان أصفر!

لم يكن عند والدتي بكلّ بساطة فستان أصفر!

ومهما عاندت والدتي ومهما كابرت، فلا يمكنها تغيير أسماء الألوان. كان عندها على ما يبدو فستان لونه قريب إلى الأصفر، لكن لا يمكن أبداً اعتباره أصفر. اللباس الأصفر الوحيد الذي كان عندها، هو كنزة صوف صفراء لا لبس في أصفرها، لكنها كنزة، بينما المطلوب والمكتوب هو فستان، ثم إن الوقت ليس شتاءً ولا برداً.

كانت عابقة الوجه وهي تفتش في خزانتها، وكان العرق ينضح على شفتها العليا، على المَيلَيْن (أوّل ما يظهر العرق على والدتي، في ذلك المكان، دائماً). ثم عضّت أخيراً شفتها السفلى بأسنانها العليا، وامتلأت عيناها بالدموع.

- "ليش؟"

فهل هناك خطأ، وأين يكون؟

وتدخل عليها أمها وهي على هذه الحالة أمام الخزانة الفارغة، بين ثيابها المنتشرة في كل مكان، فتأخذ الوالدة رهبة، فتجمد لحظة ثم تقول فوراً بلا مقدمات:

- غداً يكون عندك فستان أصفر!

- لكنه يريد الموجود.

- شو عرّفك؟ ليش اللي بتشتريه بعرق جبين بيّك مش إلك! قالت ذلك بغضب.

فخرجت والدتي إلى الحمّام مسرعة ومغلقة وراءها بابه بالمفتاح، وراحت تنظر في جورة الماء، وتتفحّص كل شيء فيها، ثم وقفت على كرسي وراحت تنظر من الطاقة إلى الخارج بعينين يائستين، ثم عادت لتجد والدتها ما زالت تنتظرها حيث كانت، فاقتربت منها وسألتها مشيرة بيدها إلى الفستان الذي يقرب لونه من الصفرة:

- ماما، أليس هذا الفستان أصفر؟

كانت جدّتي تقول دائماً عن ابنتها والدتي إنها عنيدة، وكانت تقول عنها إنها "أصفر ولو طارت!" في إشارة إلى المثل المعروف "عنزة ولو طارت!" قالت لها ذلك مرّة أمامي، وكانتا تتشارعان في موضوع والدي، وهو موضوع كانتا دائماً على خلاف فيه، كانت جدّتي تلحّ على والدتي بأن تحصر جهدها وفكرها في بيتها، وألا تضيّع وقتها في التحسّر على الماضي.

والدتي لم تعد تتفحّص الصبية الذكور خلسة كما كانت في السابق، بل صارت تتأمل رفيقاتها، تتأمل ألوان ثيابهن، فهي في سرّها تعرف مَنْ منْ رفيقاتها عندها فستان أصفر. أصفر بالتحديد. أصفر وحسب. أصفر أصفر. لكنّ الورقة رُميت إليها هي بالذات، ومن طاقة حمّام بيت أهلها. وطغت عليها الألوان، فلم تعد ترى إلا ألواناً، ألواناً من جميع الألوان، فكانت في السابق تنظر إلى الشكل فصارت إلى اللون، وكانت تنظر إلى قَصّة الثوب فصارت إلى لونه، وكانت تنظر إلى المناسب وإلى غير المناسب وإلى الجميل وإلى القبيح وإلى الموضة وإلى القديم، أما الآن فإلى الألوان، لم تعد ترى إلا الألوان. في المدرسة رأت لون اللوح، ورأت لون الطبشور ورأت لون أصابع الأستاذ، ولون أظافر أصابعه، ورأت الفرق بينها، والفرق بين لون الوجه واليدين، ولون ما تحت الظفر، ورأت ألوان شعور التلاميذ الذين قدّامها، ورأت كم أنّ الأسود الواحد مختلف ومتعدد، وأنه واحد بحكم العادة فقط، وكذلك الأصفر بالتأكيد، فليس هناك لون واحد أصفر، بل نستطيع

أن نسمّي "أصفر" مروحةً واسعة من الألوان.

قالت لصديقتها وهي ذاهبة إلى المدرسة إنها تحلم كثيراً بشراء ثياب جديدة.

– ربحت باليانصيب؟ أجابت الصديقة، ثم سألتها عن سبب انشغال بالها هذه الأيّام.

وفي الصف افتلعت مباراة بين الخطوط:

– مين خطّو أحلى؟ سألت جارها بصوت مرتفع لتبلغ ما استطاعت من الأسماع.

وتجمّع التلاميذ عند طاولتها، وخطّ كل واحد منهم عبارة على دفترها، ودوّن تحتها اسمه. كان حمد وأنور من بين التلاميذ الذين لم يقتربوا ولم يدوّنوا عبارة.

وفي البيت، فتحت والدتي دفترها، وراحت تتأمل هذه الخطوط وتحاول أن تتذكر ما إذا كان أحدها يشبه خطّ الرسالة تلك. ثم انتقلت ومعها دفترها إلى الحمّام لتفتش عن الورقة التي رمتها عمداً، فتشعر بالندم على رميها، وتتأمل حيث رمتها، وتستدير على نفسها علّها تقع عليها صدفةً في مكان.

لو تستطيع أن تبوح لأستاذها في الصفّ بما يغلي في قلبها! أن تطلب منه أن يسأل التلاميذ من كتب رسالة ورماها إليها.

لو!

أكيد يستطيع الأستاذ مساعدتها أكثر من أي شخص آخر، وأكثر من أمها بالتأكيد.

مرّت والدتي في فترة قاسية جداً من الضعف والشكّ، لكنها في تلك الفترة بالذات انعقدت علاقتها بأنور، وصارت تلتقي به في السرّ والخفاء، وسألته بالتأكيد عن الورقة فأجابها بما معناه نعم! بما معناه أنه هو الذي كتب لها الرسالة وبعث بأحدهم يلقيها. فاكتفت والدتي بهذا الجواب في غمرة حبّها وفرحها بلقائه، واعتبرت أن لقاءهما بالذات هو برهان كاف على أنه هو الذي ألقى لها بالورقة، خصوصاً أن أحداً لم يظهر في الأفق بعدها، إلا هو! وكان بالإضافة إلى ذلك يحبّها في ثيابها الصفراء اللون، التي صارت تُكثر من شرائها من أجله. أكثر الألوان التي تناسبك هو الأصفر! هذا ما كان دائماً يكرّره لها، خصوصاً في المرحلة الأولى من علاقتهما. ودامت علاقتهما على هذا الشكل حوالى ثلاث سنوات، كانا يلتقيان أثناءها، أغلب الأوقات، في استوديو التصوير الذي فتحه وصار يعمل فيه، ويبيع فيه أيضاً كلّ ما يتعلّق بأخبار السينما ومشاهيرها. وكان مكاناً مثالياً للقاء شاب

وفتاة، في ذلك الوقت خصوصاً، حيث كان يصعب على شاب وفتاة أن يختليا أحدهما بالآخر. وهذا ما سمح لهما بالذهاب بعيداً في علاقتهما بلا أدنى شكّ.

لكنّ مريم، ورغم حبّها لوالدتي وصداقتها القوية معها، كانت دائماً تلقي أسئلة فيها الكثير من الشكّ على رواية والدتي. أقصد خصوصاً رواية والدتي عن أيّ منهما، أنور أو حمد، رمى لها الورقة.

يبدو أن مريم كانت مبهورة بشخصيّة والدتي وبأخبارها وجرأتها، أكثر مما كانت مقتنعة بمنطقها. كانت مشاكل والدتي تغريها. كانت تحب أخبار القلوب وعذاباتها، وتتماهى مع أبطالها. وكانت تحلم بحبّ لها بكلّ تأكيد. وهذا ما كانت تصرّح به دائماً لوالدتي، التي كانت تنصحها بألا تتزوج إذا كانت لا تحبّ، وكانت مريم تجيبها بأنها بدأت تتقدّم في السن، وبأنّ خوفها من المستقبل بدأ يزداد، وأنه لذلك بات عليها القبول بما تيسّر.

وكانت أخبار والدتي بالنسبة إلى مريم، من أخبار الحبّ هذه التي كانت تحبّ سماعها.

وكانت والدتي صادقة في أخبارها بالتأكيد، لكنها كانت تعمد إلى إخفاء الحقيقة عندما يتعلّق الأمر بموضوعين اثنين فقط: هويّة الذي رمى إليها الورقة، وخطّة سفرها إلى القاهرة للقاء أنور هناك. أمّا ما

عدا ذلك فكانت ترويه بصراحة محرجة، بل بصراحة قاتلة.

وإذا كانت والدتي أخفت على مريم ما يتعلّق بحمد والرسالة، لرغبتها في تحويل الواقع إلى ما تريد، لكنها بالنسبة إلى سفرها إلى القاهرة، فقد كانت تحرقها الرغبة في الكشف عنه والتلذذ في الكلام عليه.

أنا متأكد من شيء: لم تخبر والدتي مريم بمشروع سفرها السريّ إلى القاهرة لأنها، كما اعتقدتُ دائماً، كانت أوّل الأمر تخاف من إفشائه، تخاف وحسب، ثمّ صارت في ما بعد تنتظر اللحظة المناسبة لإخبارها به، ثمّ حدث ما جعلها تغيّر رأيها، لا إرادياً أولاً، وما حدث كان ربما إشارات عن إمكانية فتح قنوات "حوار" بين مريم وسلفها الأصغر. كأنّها شمّت سريعاً رائحة علاقة ما، بدأت تُطبَخ باكراً جدّاً، على نار خفيفة جداً، بين مريم وعمّي الصغير، الذي سُلّم إلى الدرك يوم الشرّ الكبير في المدرسة بعد حادثة الورقة! وكان الذي يقوم بهذه "الطبخة" أهل الاثنين وأقاربهما، على غير علم مريم أوّلاً، وضدّ رغبتها بالتأكيد. فمريم في الحقيقة لم تكن تحبّه، لكنها مع الأيّام، بل مع السنين، بدأت تقول في نفسها: ولِمَ لا؟ وبدأت تقتنع به كزوج "تنستر" معه. لم يكن بينهما إذن حبّ إطلاقاً. إنه، من جانبها على الأقل، كان زواجاً عقلانياً بحتاً. زواجاً عن حكمة.

أقول دائماً إنّ عمّي الأصغر هذا، هو الذي أرسله والدي ليلقي بالورقة إلى والدتي. وأقول دائماً إنّ والدي بالتأكيد لم يسمح له بقراءتها، ولم

يخبره بما فيها، لا في ذلك الوقت ولا بعد ذلك الوقت، وهذا القول ناتج من شعور عميق لديَّ لكنني لا أملك حجةً لبرهانه. وقد كلّفه والدي بهذه المهمّة لأنه ولد لا يلفت النظر إذا ما قفز ورمى شيئاً من طاقة حمّام.

وتشاء الظروف إذن أن تتزوّج مريم بعمّي الأصغر هذا بالذات. كانت والدتي في الحقيقة امرأة تتمتّع ببعد نظر، وبذكاء نفّاذ.

وكان والدي مغرماً بعمّي هذا إلى أقصى حدّ. إنه أمر معروف عندنا، أن يحبّ الأخ الأكبر في العائلة أخاه الأصغر، حبّاً مختلفاً. لكنّ شيئاً لم يصدر عن والدي بخصوص هذا الزواج، عمّا إذا كان راضياً به في نفسه، أم لا. تصرّف بغياب، أقصد أنه ترك الأمور تجري بدون أن يعاكسها، وبدون أن يكون له تأثير فيها، لا بالسلب ولا بالإيجاب. فهو كان دارياً بالطبع، بهذه العلاقة القويّة بين مريم ووالدتي، وكان بالتأكيد يشعر أن مريم تخافه بمعنى ما، أو تهابه أو تحذر منه، نتيجة ما كان يتصوّر أن والدتي تخبرها عنه. فهل كان هذا عنده عاملاً ضدّ الزواج؟ أم أن هذا القرب الكبير، بين والدتي ومريم جعله يميل إلى أن يكون عنده موقف إيجابي، مؤيّد لهذا الزواج، حتى يفرّقهما عن بعضهما، أي حتّى تكون لمريم حياة خاصة تنشغل بها، ولو قليلاً، عن المجيء اليوميّ مرّة وأكثر، عند والدتي.

أما والدتي فكانت تعلن تأييدها لهذا الزواج بلا تردّد، وبصراحة لا

تسمح بشكّ. أماّ ما كانت تشعر به في الداخل فهذا سرّ ليس من الصعب بلوغه. لكنّ حدسي يسمح لي بالقول، إنها لم تكن في قرارة نفسها تتمنّى أن تتزوّج مريم من عمّي. كانت بالتأكيد تتمنى لها أن تتزوج من أحد يُبقيها قريبة منها، والزواج من سلفها هذا، لن يحقّق بالتأكيد هذه الأمنية. لكنّها أبقت على هذه المشاعر في قلبها، لم تسمح لها بالظهور إطلاقاً. وقد أهدت إلى مريم بمناسبة زواجها برّاداً، وكان البرّاد في تلك الأيّام هديّة كبرى، يهديها الغني المرتاح. وقد دفعت ثمنه من جيبها الخاص، لأن والدتي كان يبلغها من وقت لآخر بعض المال، من محاصيل أراضي والديها، أو ما يرسله لها أخوها المغترب في أميركا، وكان والدي لا يسألها عن هذا المال إطلاقاً.

مريم ظلّت على صداقتها لوالدتي بعد الزواج، لكنها بالطبع لم تعد تُمضي كلّ أوقاتها عندها، كما كانت وهي عزباء.

وكذلك والدتي ظلّت محافظة ما استطاعت على هذه العلاقة، وقد زارت مريم في بيتها الجديد، بيت زوجها، مرّات عديدة بحضور زوجها عمّي الأصغر أو بغيابه. كان عمّي يتأهّل بها ويعاملها باحترام، (لا أكثر!) وكان يُخلي لهما البيت، أو الغرفة التي تكونان فيها، ليتركهما تتحادثان بحريّة وبلا حرج. كان هذا دليل احترام لزوجته، ودليل رغبة في مهادنة والدتي، بل ربما في التصالح معها، ونسيان ما مضى. (كان هذا حين أفكّر فيه اليوم، أمراً يُبهجني كثيراً، ويزيل عن قلبي كثيراً من الظنون الشائكة، التي كانت تغرز أشواكها فيه).

وكانت والدتي أيضاً تهادنه، وتقابل خطواته بخطوات مثلها. وكانت من بعد النظر، بحيث إنها هيّأت لذلك، ومهّدت له، فقد قالت لمريم حين رأت الأمور تنحو نحو الزواج بلا رجعة، قالت لها: "تصرّفك هو الصائب." فالزواج المتفاهم عليه له كثير من الإيجابيات. وقالت لها إنها متأكّدة من أن عمّي يحبّها، وإنها تستطيع التفاهم معه، وإنه ليس من الضروريّ أن تكون تصرّفاته معها شبيهة بتصرّفات أخيه والدي. وقد دعتهما مرة إلى فنجان قهوة في بيتها، قبل الزواج، مع بعض الجيران. والدي لم يحضر. كانت والدتي في هذه الأثناء شديدة اللطف، ليس مع الموجودين وحسب، بل معي أنا أيضاً. وكان عمّي ودوداً جدّاً، ليس مع والدتي وحسب، بل معي أنا أيضاً. كانت تلك لحظات مختلفة. سحب من جيبه قلم حبر من النوع الغالي جدّاً، مطليّاً بالذهب، وقدّمه لي، قال: "إنشاء الله تأخذ به أعلى الشهادات!" فتناولتُه منه بفرح كبير، مُسكر، عميق، لكنني جهدتُ حتى لا يظهر هذا الشعور بكلّ قوّته على السطح، لئلا تُقام العلاقة بين الأشياء، من قبل عمّي أو من قبل الموجودين، وحتّى لا تذكّر اللحظة الراهنة ببرودة الماضي وصقيعه، (وسمومه!) وظللت ممسكاً بالقلم ما دامت الزيارة. كان عربون صلح تاريخي.

وظلت والدتي تشعر أن مريم معها ومن جهتها ومؤيّدة لها، وذلك لمدة طويلة جدّاً. وظلّت تخبرها بما يستجدّ معها، أو تُعيد إخبارها القصص القديمة ومفاعيلها. وكانت مريم أيضاً تروي لها علاقتها بزوجها، وتروي لها أشياء دقيقة ليس من السهل على كلّ إنسان البوح

بها، وكنت أصبحت فتى شابّاً في تلك المرحلة، وكانتا لا تترددان في الكلام، في حضوري، عن هذه المواضيع النسائية الدقيقة. كأنّ مريم كانت تريد أن تنسيني أنني أصبحت شابّاً بالغاً، وكأنها كانت في إصرارها على عدم تغيير عاداتها مع أمّي، تريد أن تقول لي إنّ ما جرى في ذلك اليوم بيننا، كان حلماً أنا حلمته وحدي. لم أعد بالطبع أجلس معهما كما كنت في السابق عندما كنت صغيراً، لكنني كنت دائماً هنا، عابراً أو منشغلاً بشيء، فلا يشغلهما وجودي إطلاقاً. وكنت أحياناً كثيرة أتعمّد التنصّت. قالت مريم لوالدتي إن عمّي أوّل ليلة لهما، بعد العرس، نهض عنها بعدما أدماها، ولبس ثيابه وخرج، ثم عاد سريعاً ليقول لها إنه لا يمكنه الخروج، لأن كلّ من يراه سيسأله عن السبب، فهذه كانت ليلته الأولى مع عروسه، وهي ليلة لا يُرى فيها العريس في مكان آخر. فحزنت في قلبها لمّا عاد، لأنها أرادت أن تنام، وخافت أن يعود إليها من جديد مرّة ثانية، وقد حدث بالفعل ما كانت تخاف حدوثه، فحاول مرّة ثانية وكان الدم بعد لم يتوقّف، وآلمها أكثر من المرّة الأولى، وقالت لأمّي أيضاً إنها لا تنبسط أثناء هذه الممارسة، بينما هو يصرخ ويشخر كحيوان برّي، فتخاف أحياناً أن يكون به شيء، وتقول في سرّها "شو هه الجرسة! إذا صار معه شيء، فكيف سأتدبّر؟" وقد أنجبت منه ولدين، صبيّاً وبنتاً، وهي ما تزال تسأل والدتي عن اللذة الحقيقية، وعن البلوغ الذي يتعتع الجسم، والذي "يجعلك تطيرين إلى أعلى السماء."

وذات يوم، أخبرت أمي شيئاً خطيراً، واهتمّت أمي لهذا الخبر

اهتماماً عظيماً. أخبرتها أنه سألها عن علاقتها بها، أي عن علاقة مريم بوالدتي، فأجابته "وما تريد أن تكون؟ إنها أعز صديقاتي." وكانت والدتي في الحقيقة تتوقّع أن يسألها هذا النوع من الأسئلة، بل كانت متأكدة من أنه سيسألها هذا النوع من الأسئلة عاجلاً أم آجلاً، وودّت مرّات عديدة، بل كادت تسأل مريم عمّا إذا كان زوجها يسألها عن علاقتهما، أو عمّا إذا كان يطلب منها أن تروي له أخباراً عنها – عن والدتي (هل أرادت أن تسألها عمّا إذا كان أخبرها أنه هو الذي أرسله أخوه حمد ليلقي لها بالورقة؟) لكنها لم تجرؤ على طرح هذه الأسئلة، وانتظرت اللحظة المناسبة، وكانت أكيدة من أن هذه اللحظة المناسبة ستجيء لا بد، وأنه ما كان عليها سوى الانتظار وحسب. فهي تعرف أن مريم صديقة حقيقية، وتعرف أنها تحبّها، وأنها لن تخفي عنها شيئاً يحدث بينها وبين زوجها، وخصوصاً إذا كان هذا الشيء يعنيها. وهذا ما كان بالفعل، فقد سأل عمّي زوجته مريم، ذات يوم، عن علاقة والدتي بأنور! سألها إذا كانت والدتي أخبرتها، عمّا إذا كان أنور هو الذي فضّ بكارتها ومتى؟

(ومتى؟

إن رغبته هذه هي تحديد الوقت تعنيني مباشرة! بل بكلام آخر، أنا موضوع السؤال! الله! الله! يا عمّي! ما زالت الأشياء كلها حيّة ناشطة في قلبك!).

بل قال لها إنه وإخوته متأكّدون من ذلك، من أنّ أنور هو الذي أفقدها بكارتها، وليس أخاهم الأكبر! وقال إن هذه أمور الآن منسيّة، لكنها في داخل القلوب والنفوس.

(منسيّة!)

لم يقل عمّي لمريم ما إذا كان أعمامي قرّروا يوماً قتل والدتي. (أرادوا ذلك، هذا شيء أنا أكيد منه، ولا أقبل بأن يناقشني فيه أحد، لكن القرار لذلك هل اتخذ ذات يوم؟) مريم لا علم لها بشيء إطلاقاً عن هذا الموضوع. وكذلك لا تدري مريم شيئاً عن زوجة ابن عمّي، التي تخلّص منها عمّي بعد مقتل ولده زوجها، لكنها تملك كلّ أسباب الشكّ في الأمر. ولا والدتي بالطبع تعلم شيئاً عن هذا الموضوع، سوى أن هذه الصبيّة العروس، التي لم يمض بعد على زواجها إلاّ أشهر قليلة، اختفت بعدما ضيّعت عقلها، بعد مقتل زوجها التي كانت تحبّه. لكنّ أسباباً عديدة كانت تسمح لها هي أيضاً بالشكّ بصمت ورويّة وحسبان. ("لكلّ مجنون جنزيره!" يقول الرجال عندنا في العائلة). الرجال فقط على علم بذلك. الإخوة فقط. وبعد الإخوة من يصله خبر بطريقة ما، من يستطيع قراءة الممحي، ومن له ملكة فضّ الرموز المخفيّة، من الرجال الآخرين الأقرباء الذين عليهم التزام الصمت المطلق، لأن البوح خيانة واغتيال. حتى التساؤل عن صحّة الخبر ممنوع. وحتى المعرفة بالأمر لها طبيعة مبهمة. وهذا المنع محترم كأنه قانون إلهيّ لا يقبل المناقشة، ولا حتى التفكير فيه.

ظلّت علاقة مريم بوالدتي جيّدة جدّاً، على امتداد سنين طويلة بعد الزواج، لكن الحياة تجبر الناس أغلب الأحيان على الابتعاد عن بعضهم، بسبب المشاغل اليومية الكثيرة التي لا تنتهي ولا تتناقص، بل تبقى دائماً على ازدياد. يكبر الأولاد وتكبر همومهم معهم أيضاً، يقول الأهل دائماً على سبيل الاعتذار عن عدم قدرتهم على تلبية دعوة ما.

ودامت والدتي ومريم على الودّ القديم، والمحبة والرغبة الدائمة في الزيارة حين تسنح الفرص، وظلّتا Complices طوال تلك السنين التي انقضت على زواج مريم. لكنّ الشرخ حصل في الأخير! شرخ أحدثه زلزال كبير هو مقتل ابن مريم، الذي كان في السادسة عشرة من عمره!

أعتقد أن هذه الحادثة، وضعت مريم في وضع لا يمكنها ألا تخبر عن والدتي (يعني عنّي أيضاً!) أشياء يجب ألا يعرفها أحد. خصوصاً أن القاتل كان من أقرباء أنور، أو بالأحرى من الطرف الذي أنور منه بالطبيعة والمولد. وأنور كان أصبح في تلك الفترة من زمان في أميركا.

فهل يمكن ألا يكون أعمامي اطّلعوا على كلّ شاردة وواردة عني وعن أمي؟ هل يمكن ألا يكونوا بلّغوا والدي؟

(هل كان والدي بعدُ تنقصه معلومات عن تلك العلاقة؟ أما كان

يعرف كلّ شيء، الجوهر والمهمّ والتفاصيل؟ كان ما عنده من اطّلاع يكفيه بالتأكيد. وقد اكتفى.)

كان ابن مريم، ابنُ عمّي، بكر والديه، في الأوّل الثانوي، وكان بدأ يقرأ كتباً تتكلّم عن أمور خارجة عن برنامج المدرسة، تهتمّ "بأمور المجتمع"، يعني بمعنى ما بالسياسة، لكن ليس بمعناها الانتخابي، بل بالمعنى الواسع التغييري، وصار هذا الفتى يعتبر نفسه، شيئاً فشيئاً، غير معنيّ بخلافات العائلات الدمويّة في البلدة، فصار يذهب عن قصد، إلى أماكن فيها من كلّ الناس، بل صار يذهب إلى أحياء ممنوعة عادة عليه، وذات مرّة اصطيد هناك. لم يشمّ الشرّ الآتي، ولم يقدّر خطورة ما كان يُحاك في تلك المرحلة فقُتل. ستّ عشرة سنة هكذا كومة واحدة على حرف الطريق، في منتصف النهار. فجنّ جنون الوالدة، مريم، وقد بُلّغتْ بالهاتف.

رنّ الهاتف في البيت وكانت مريم وحدها، فابنتها الوحيدة كانت في الخارج، وزوجها أيضاً، وكان على الخطّ صوت لم تستطع التعرّف إلى صاحبه، الذي بادرها بالقول:

- حتى تعرفي ما قيمة الأولاد!

ثمّ أقفل الخطّ، بلا أن يقول بالطبع من هو، وبدون أن يوضّح ماذا يقصد بهذه العبارة المسمّة. لكنّ مريم اشتعل قلبها، وعرفت الجهة إن

لم تعرف الشخص بعينه، ونادت على الجيران والأقارب، واتصلت بالذين تَبلغُهم الأخبار سريعاً، حتى فهمت معنى العبارة كاملاً، فالتوَت على نفسها وهي تقول: "ولدي!"

لم يبقَ لها صبيّ إذن. لم يبق لها سوى هذه الصبيّة البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة. ومريم لم تُكثر من الأولاد لأنّ ولادتها صعبة، ولأنها تريد أن يعيش ولداها مرتاحين لا ينقصهما شيء. لا تحبّ مريم أن ترى ولداً محروماً. والولد الذي يفوق قدرة الأهل على تربيته حرام عندها.

ثمّ طلبت مريم أن يحضر زوجها فوراً، طلبت ذلك وألحّت، وحار الناس الأقرباء والجيران، الذين أقبلوا سريعاً إلى بيتها بعدما انتشر الخبر، حاروا في أمر هذا الإلحاح، فماذا في استطاعة زوجها أن يفعل الآن، وما حدث قد حدث، ثمّ إن الرجال يلتقون بالرجال في مثل هذه الحالات، ولا يتعزّون بالنساء بينهم، لكنها ظلّت تُصرّ إلى أن حضر زوجها، فجرّته إلى حائط البيت، أسندت إليه ظهرها، ورفعت فستانها بإحدى يديها حتى أعلى فخذيها، وشدّت زوجها باليد الأخرى نحوها، وهي تصرخ وتقول:

– حبّلني!

– حبّلني الآن! أريد ولداً الآن! إذا لم نخلّف قضَوا علينا! أذلّونا!

لكنّ زوجها ضربَها بقوة، على اليد التي كانت ترفع بها فستانها، وجرّها إلى غرفة داخلية ليس فيها أحد، وهو يصرخ في وجهها ويقول: "ابنك قتل!"

تغيّرت مريم كثيراً بعد مقتل ولدها، والتفّت بالسواد طويلاً، و لم تعد تتخلّى عنه، ثم بعدما حلّت الحداد شكلاً، أبقت عليه في قلبها وفي أعماق نفسها ووجدانها. وكانت والدتي وخصوصاً في الفترة الأولى بعد مقتل ابنها، لا تتركها وحدها أبداً، كانت في زيارة شبه دائمة لها، تعزّيها وتنسيها وتقنعها بأن تُنجب من جديد، وبأن تستشير طبيباً إذا كان هناك مانع في جسمها لا يسمح بذلك. "ولدٌ الآن يسلّيك عن أحزانك، ويعوّض بعض الشيء خسارتك،" كانت تقول لها والدتي. وكانت مريم تفرح بوجود والدتي عندها، لكنها لم تعد تسألها عن أحوالها، وعن مشاكلها، وعن قصّة حبها القديمة الجديدة، التي ملأت أحلام مريم طوال سنوات عديدة وعقود. ثمّ إن والدتي حين كانت تزورها، فنادراً ما كانت تجدها وحدها، كان عندها دائماً زوّار، أقارب أو جيران. ثم إن مريم لم تعد تزور والدتي إطلاقاً، وكان السبب أوّل الأمر هذه الحادثة وما خلّفته من جروح عميقة، ودائماً حيّة لا تلتئم، ثم تغيّرت الأحوال، ودامت على تغيّرها، وجرت العادة بشكل مختلف. وصارت مريم في الحقيقة على مزاج آخر، وصارت همومها أخرى. وصارت تخاف كثيراً على زوجها، وتنتظر بفارغ الصبر عودته إلى البيت، بعدما كانت، كما ظلّت تسرّ لأمّي، لا تهتمّ به في قلبها إن عاد أو إن خرج. وقد حبلت مرّة بعد مضي أقل من سنتين

على مقتل ولدها، لكنها لم تستطع الاحتفاظ بالجنين، فاضطرت إلى الإجهاض وهي في شهرها الثالث.

لكنّ كلمة سوء واحدة لم تبلغ والدتي عن لسانها.

لم تعد لوالدتي صديقة بعد مريم.

لقد ظلّتا صديقتين مبدئياً، لكن هذه الصداقة صارت مع الأيّام بدون موضوع، وبدون لقاء. وزاد هذا الوضعُ والدتي مرارة. صارت وحدها، ودخلت في عزلة لم تعد قادرة على الخروج منها، و لم يكن في استطاعتها بناء صداقة جديدة، وظلّ شعورها بالمرارة يزداد مع الأيّام. صار يصعب عليها أكثر وأكثر تناول الحياة من طرفها الأحلى، وكان هذا الأمر ينعكس على علاقتها بي، أكثر مما ينعكس على علاقتها بوالدي، فهي مع والدي كانت ثابتة السلوك منذ السنوات الأولى لزواجها، بل منذ الأسابيع الأولى، كانت تعرف عند أي حدّ تقف معه، وتعرف ما عليها وما ليس عليها. كانت منذ السنة الأولى لزواجها، تذهب إلى الدكّان تشتري كلّ ما يلزمها للبيت، وكان والدي يدفع في آخر كلّ شهر لصاحب الدكّان مباشرة، أمّا المصاريف الأخرى، التي لم تكن داخلة في نطاق البيت، فكانت تسدّدها من مدّخراتها الخاصة. لم يكن والدي يسألها إطلاقاً عن الأمور المالية. أمّا علاقتها بي فلم تكن خاضعةً لهذه العادات الصارمة، بل كانت متحوّلة متغيّرة حسب المزاج والظروف، أقصد أن والدتي لم تكن

لتنهر والدي مثلاً إطلاقاً، مهما كانت الظروف، بل لا ترفع صوتها في وجهه، أمّا أنا، فكانت تنهرني ساعة تشاء، أي ساعة تدفعها الحاجة. لكنّ بعض مشاعرها نحوي كانت ثابتة لا تتغيّر. كنت دائماً أشعر في أعماقي أنها تهزأ مني، وأنها لا تشعر نحوي كما تشعر الأمّهات نحو أولادهن. وكانت، حين أنجح في شيء – شهادة أو عمل – تتصرّف كأنّ ذلك أمر عاديّ، فحين نجحتُ في شهادة البكالوريا، وكانت شهادة صعبة في تلك الأيام، تلقّت النبأ ببرودة أعصاب لافتة ابتسمتْ قليلاً، واحمرَّت قليلاً، وجاء الجيران وهنّأوها واستقبلتهم بشكل لائق، بينما اشترت إحدى جاراتنا بالمناسبة علبة شوكولا، وصارت تضيّف المارة في الطريق في الحيّ، وهذا بالذات ما فعلته في السنة التالية عندما نجح ابنها.

منذ صغري، أي منذ بدأت أعي نفسي وما حولي، كانت تعاملني والدتي بشكل مفاجئ لي، أقصد أنني منذ بدأت أعي، وأنا أرى أنّ والدتي تتصرّف معي بشكل طبيعي، أي بشكل مختلف عن تصرّف والدات رفاقي مع أولادهنّ. هذا شعور غريب. ويصبح غريباً أكثر عندما أقوله وأبوح به، وإنْ لنفسي، لأنني لم أكن أعيشه بهذه الكلمات. فمثلاً كنت دائماً أشعر بنوع من الانزعاج، حين كانت تصارح مريم بهذه القضايا الشديدة الخصوصية في حضوري، وصرت أنزعج أكثر عندما كبرتُ، وما كان يزعجني كثيراً جرأتها على الكلام معها، في حضوري، على أشياء يصعب على الإنسان أن يُظهرها أمام الغير. كانت تتكلم معها أثناء وجودي بما حَلاَ لها، بلا حذَر ولا

حرَج. غريب كيف يجهل الأهل أشياء بهذه الأهميّة! بأهميّة ما تتركه من أثر على أولادهم، أخبارٌ قد تصيب اطمئنانهم إلى أنفسهم، إلى هُوّيتهم أو بنوّتهم في القلب! أو أنهم، أقصد الأهل، ينسون أنّ الأولاد يسمعون ويرون ويفهمون! أو ربما كانت والدتي تريد عن قصد أو غير قصد، أن تؤذيني على مدى الحياة لأنني ثمرة بطنها غير المشتهاة، (هذه على كل كانت سعادتي، طَوال فترة صباي. نعم كانت سعادتي أني كنت ثمرة بطنها غير المشتهاة. وخصوصاً غير المشتهاة!) وكثيراً ما كنت أشعر أنّ والدتي تعاملني كأنها تثأر مني، لأ لم تألّمْته وكنت أنا السبب. وكان شعوري هذا يزداد كلّما كبُرتُ، وخصوصاً في الفترة الأخيرة، بسبب تباعد زياراتي ربما. غريب كيف أنها أصبحت في الفترة الأخيرة أكثر عصبية، وأكثر رغبة في الإيلام والأذى. فعندما زرتُها في المرّة الأخيرة قبل مقتل والدي، أقصد عندما زرتهما قبل أشهر من مقتل والدي، أخذتُ معي كتاب تعلُّم الإنكليزية، حتى لا أتوقّف أثناء هذين اليومين، عن مراجعة ما تعلّمتُه، وإكمال الدروس التالية، لئلا أنسى، فمشكلتي أنا في هذا العمر مع الإنكليزية هي النسيان، لا الاستيعاب طبعاً، فإنني أستوعب بسرعة كبيرة، لكنني سرعان ما أنسى، ولذلك صارت متابعة التعلّم هاجساً فعليّاً، وكنت أحسّ أن هذا الهاجس يتعدّى تعلم الإنكليزية إلى أشياء نفسيّة عميقة، كأنّه أمر ارتبط بعلاقتي بالعمر وتقدّم سنّي، أي إنّ تغلّبي على مسألة النسيان، صارت تحدّياً ومقياساً لحيويّة دماغي. قلت إذن أتعلّم مرّة واحدة، بلا توقّف، أفضل من أن أجرجر حتى ما لا نهاية، وخصوصاً أن الإنكليزية باتت لغة لا مفرّ منها، لمن أراد أن يعيش هذا العصر بلا

شعور بالغربة والعزلة عن هوائه. كنت في وضع نفسيّ لا يسمح لي بألا آخذ كتابي معي، أثناء زيارتي والديّ، مع أني كنت أعلم، بالحدس على الأقلّ، بل بالتجربة أيضاً، أنّ والدتي ستجد هذا الكتاب عندما ستراه، مناسبة للهزء منّي. نعم للهزء والسخرية. أما والدي فهذه أمور لا تعنيه، فهو لا يلاحظها، وحتى إذا ما لاحظها فإنّه لا يتوقّف عندها، فالبيت وكلّ ما فيه بالنسبة إلى والدي، أمر خارج حياته الفعليّة، وحياته الفعليّة هي في الخارج، خارج البيت، في تدبير ما يملك من بساتين ليمون وزيتون، تؤمّن له بعض المداخيل، وفي التوسّط في كلّ عملية تتعلّق بالبيع والشراء، من العقارات المبنيّة إلى غير المبنية إلى السيارات إلى كلّ ما يُباع ويُشرى، ويتدخّل والدي أيضاً في حلّ المشاكل الناتجة من الرهون بسبب الدين، فهناك كثيرون ممن يستدينون ويرهنون لذلك قطعة أرض أو مسكن أو شيئاً من هذا، ثم عندما يحين الوقت ويعجزون لسبب من الأسباب عن الدفع، تنشأ خلافات في ما بينهم تتطوّر أحياناً إلى الأسوأ، فيتدخّل والدي وسيطاً، ويساعد على حلّها، وينال مقابل ذلك ما تيسّر، بحسب الأشخاص المعنيين، وبحسب أهميّة الخلاف، وبحسب مصلحة المعنيّين بإرضاء العائلة، التي يُعتبر والدي من رموزها. وأحياناً، يُدَيّن والدي، لكن إذا كان الشخص آدميّاً لا حبّاب مشاكل، وإذا كان أيضاً يملك بشكل أكيد، ما يستطيع التعويض به، في حال حانَ وقت التسديد وعجز عن ذلك. لأن والدي لا يحبّ الوقوع في مشاكل بسبب الدّين، ويخجل من تصرّف بعض المُقرضين الظلام، كما يصفهم، الذين يبلغ بهم الأمر أحياناً، حين لا يسدّد المَدين دينه في الوقت المناسب، أن يضعوه، إذا

لم يكن له سنَد يحميه، في صندوق السيّارة علناً، في ساحة البلدة، ويأخذوه إلى عائلته، حيث يفتحون الصندوق ليخرج منه أمام زوجته وأولاده، شبّاناً وصبايا، غارقاً بالعرق والصمت. وفي المرّة التالية قد يزورونه في البيت أثناء غيابه، ويستعرضون المشكلة والحلول الممكنة لها مع سيّدة البيت، أو مع ابنتها الكبرى أو المناسِبة، مُبْدين ليناً صريحاً، واستعداداً كلّياً لإيجاد حلّ لا يخلو من الفروسيّة الظاهرة. والدي في الحقيقة يكره هذا الأمر، أي الشغل بالدّين، ويعتبره حراماً، لكنْ أحياناً، وأحياناً فقط، يجيئه شخص محتاج إلى كمية من المال فوراً، لا يستطيع التهرّب منه. وأغلب الأوقات يقول لا حتّى في هذه الحالات الملحّة.

تحت ضغط مشاكلي مع ذاتي إذن، أخذت معي كتابي الذي أتعلّم فيه الإنكليزية والشريط الذي معه، وبعد وصولي بساعات، وبعد جولتي على الأصحاب والأصدقاء في أماكن تجمّعهم وتسليتهم، عدت إلى البيت وكانت والدتي في غرفة الجلوس، أو ما بتنا نسمّيه غرفة التلفزيون، تتفرّج على أحد الأفلام الأميركية، وكان هذا أجمل شيء عندها، فيلم أميركي في السهرة، كان هذا أفيونها الذي يريحها من كلّ تعب العالم والليل والنهار، وأنا ككثير من مثقّفي جيلي، لا يليق بي ولا يُرضي مستواي الثقافي فيلم كهذا، فقرّرت أن أستغلّ ما بقي من المساء قبل وقت النوم، لأراجع درساً من دروس كتاب تعلّم الإنكليزية، فوضعتُ الشريط في المسجلّة في الصالون، وفتحت الكتاب أتابع وأسمع وأردّد. كانت طريقتي الخاصة في التعلّم أن أسمع

الدرس في الشريط أوّلاً، وأن أتعرّف على كل حرف فيه وكلمة، ثم من بعد ذلك، أعمد إلى قراءته في الكتاب، لذلك كنت أضطرّ إلى إعادة الشريط دائماً، لأسمع من جديد العبارة ذاتها مرّات عديدة، حتى أستطيع التعرّف عليها قبل قراءتها. هذه كانت فلسفتي في التعلّم، كان هدفي فهم المنطوق قبل المقروء. كان هاجسي وحلمي من تعلّم الإنكليزية أنني سألتقي سريعاً ببشر كثيرين، وسأتواصل معهم، وسألتقي بأشخاص أعرفهم بالاسم، وأحبهم وأقدّر آراءهم، وأعتبر أنني وإياهم ننتمي إلى مكان واحد، وزمان واحد، إلى الـ Territoire نفسه، وإلى قيم واحدة، وكنت (وما زلت) أعتقد أنه علينا أن نناقش طبيعة هذا "المكان"، (وهو ما يسمّى بلغة الأوطان الحاليّة أرض الوطن، التراب الوطني، داخل الحدود، إلخ.) وعلينا أن نناقش كلّ المسائل المتعلّقة به، خصوصاً بعد انتشار الإنترنيت، وتطوّره السريع الواعد بهذا الخصوص. كنت وما زلت أكيداً، أن هناك بشراً كثيرين ينتمون إلى هذا التريّتوار الواحد ذاته، وأنّ ما يجمع هؤلاء أحياناً، هو أهمّ بكثير مما يجمع بين جارين، أو بين اثنين من أمّة واحدة أو وطن واحد أو طائفة واحدة أو دين واحد، لمجرّد كونهما جارين أو منتميين إلى أمة واحدة أو وطن واحد إلخ. أنا أتعلّم الإنكليزية إذن، كونها اليوم الوسيلة الموجودة والمتاحة التي تؤمّن هذا الشيء، وليس حبّاً بها بالضرورة، أو اقتناعاً بمزايا فيها تجعلها أفضل من غيرها، وكذلك ليس كرهاً بلغة أخرى أو تقليلاً من أهميّتها، لكن في الساحة اليوم الإنكليزية، فلمَ لا نستعملها كعنصر توحيد وتقارب وتعارف (وتَعاد؟) بلا أي تعصّب قومي أو ثقافي أو ما إلى ذلك. بكلّ بساطة.

وخصوصاً أنّ بين الإنكليزية (وزميلاتها اللغات الغربية الأخرى وخصوصاً الفرنسيّة)، واللغة العربية اليوم علاقة تفاعل هائلة، فمن يقرأ مجلة "Time" أو "Newsweek" مثلاً، (كنت أقرأ مقاطع فيهما من وقت لآخر بصبر أيّوب) يبدو له أحياناً أنه يقرأ بمعنى ما بالعربيّة، لكثرة العبارات التي صارت مشتركة بين اللغتين، والتي هي في الأخير أكثر بكثير من عبارات، هي علامات تحدّد المسالك التي ينتهجها التفكير، بل هي طرق في التفكير:

By the way; in the other hand; without doubt; burning question; sooner or later; at least; keep an eye on; on the brink of collapse; fearing the worst; killing... and injuring; just in time to; in fact; more than ever; short sightedness; in big part; this puts Airbus almost on an equal footing with Boeing; what is required; work hand in hand; in addition to; taken into account; according to; from time to time.

وما إلى ذلك من عبارات عديدة، تحسّ وأنت تقرأها كأنّك تقرأ العربية باللغة الإنكليزية، مما يسهّل عليك الفهم، ويعدك بتقدّم سريع.

وبينما أنا إذن أعيد الشريط على عبارة عصى عليّ التعرّف إليها، (إن ما يزيد تعلّم هذه اللغة صعوبة عليّ هو سَمَعي، فعندي مشاكل في السمع، وفي سمع بعض الحروف بشكل خاص، كالسين والذال والفاء وما إليها، مما يجعل أمر تطبيق منهجي الخاص في التعلّم،

المعتمد على السمع أساساً، أمراً صعباً، بل شديد الصعوبة أحياناً حتى الاستحالة.

والدي لم يكن يعاني إطلاقاً من هذه المشكلة، بل كان يتمتّع بسمع كسمع الخلد!

اللهُ!
كيف أن كل جمر يختبئ تحت رماده!)

وبينما أنا أعيد إذن سماع هذه العبارة العاصية وتمتنع عليَّ، ثم أعيدها وتمتنع عليَّ، لحروف فيها يصعب عليَّ سماعها بالتأكيد، رفعتُ صوت المسجّلة كثيراً وألصقت أذني بها، ورحت أسمع بانتباه شديد المرّة تلو المرّة، وبينما أنا كذلك، فتحتْ والدتي عليَّ الباب، ونظرتْ إليَّ نظرة تفتعل فيها التعجب والدهشة، فخفّفتُ الصوت ونظرت إليها مبتسماً ابتسامة الولد الذي قبض عليه بالجرم المشهود، وهممت بالكلام لكن خانتني الفكرة والحيلة والعبارة، فبادرتْ هي وقالت بسخريّة هائلة:

"Do you speak English?

How are you?"

وانفجرتْ بالضحك وهي تردد هاتين العبارتين، وتدور على نفسها، حتى التوت على ذاتها كمن أصيب في بطنه، ثمّ اقتربت من أول كنبة

وأسندت نفسها إليها كي لا تقع، ثمّ نظرت إليَّ نظرةً كأني ذكّرتها بشيء ما بعيد عميق، كانت تنظر إليَّ لكنها لم تكن تراني، كانت تتأمّل عبري شيئاً ما في نفسها، ثمّ صحت فجأة من غفلتها، وعادت إلى شاشتها تتابع الفيلم الذي كانت تشاهده، بهدوء من فعلت إبرةٌ مخدّرة فعلها فيه.

كانت والدتي تلبس الروب دي شامبر. وكان لونه أزرق سماويّاً لا أنساه، وكان طويلاً يبلغ الأرض تقريباً، ويُفصح عن قامتها الجميلة. كانت أمّي امرأة جميلة.

فماذا أقول؟ حرتُ، وخجلتُ. بل تمنّيت لو أن الأرض تنشقّ حالاً وتخفيني، ولو أنني أتحوّل فوراً إلى "لم أجئ هذه المجية اللعينة!"

أنا كلما تقدّم بي العمر، تتأكد هذه النظرية عندي، وهي أن الإنسان يستدعي مشاكله! وما جرى لي هنا دليل آخر، فأنا كنت أتوقّع من والدتي ردّ فعل ساخراً، فلماذا إذن هيّأتُ لها الشرط المناسب؟ وكنت أتوقّع منها ردّ فعل كهذا خصوصاً أنه سبق أن صدر عنها إنذار مشابه، منذ عدّة سنوات:

"ما هذا؟" سألتني حين رأتني أول مرّة منصرفاً بصمت إلى كتاب يُعلّم الإنكليزية، فابتسمتْ حين أجبتها أنني أريد أن أتعلّم الإنكليزيّة، ثمّ قالت بسخرية وهي تمنع نفسها من الانفجار بالضحك "How are you"

فخجلتُ، وأردتُ أن أخفي الكتاب لكنني خفت من أن أغرق في المهزلة أكثر، فحاولتُ أن أبدو كأني منصرف إلى كتابي فلم أستطع، فرغبت في التنفيس عن هذا التوتر الهائل الذي تعبّأ فيَّ، فلم أجد وسيلة إلا البكاء، لكنني لم أبك، ولم يكن بإمكاني أن أبكي.

كنت أتوقّع من والدتي إذن ردّ الفعل هذا، لكن ليس بهذه القوّة المؤذية، لأنني كنت اعتقدتُ أنها اعتادت على أنني أتعلّم الإنكليزية، وأنّ ردّ فعلها في حال حصوله سيكون ابتسامةً خفيفة، أو إشارةَ تذمّر خاطفةً بيدها، بما معناه أنّي ما زلت على حالي لم أتغيّر. لكنني لم أكن أتوقّع منها هذا الانفجار المروّع.

فلماذا ما زالت والدتي مصرّةً على الأذى، لماذا؟ بل كأنها ازدادت رغبة في الأذى مع تقدّم الأيّام، بدل أن تُغيّر الأيّامُ موقفها وتليّنه. فهل ابتعادي عنها وتباعد زياراتي لها، وندرة اتصالي الهاتفي بها، للسؤال عنها وعن أحوالها وعن صحّتها، وسؤالي التقليدي عن والدي، الذي كانت تأخذه حجّة لتجيبني الجواب ذاته دائماً، "أبوك شاب عازب يفتّش عن عروس!" فهل هذا الابتعاد من قبلي حرّر مشاعر السلبية نحوي، فكانت النتيجة مزيداً من الرغبة في الأذى، إلى حد أنها، وهي السيدة اللائقة، صارت في حضوري لا تراعي آداب التصرّف أثناء الأكل، فتمدّ يدها مثلاً إلى فمها بينما نحن نأكل معاً، وتسحب بأصابعها بقايا الأكل العالقة بين أسنانها أو بين أضراسها، ثمّ تمسح أصابعها برغيف الخبز الذي تضبّه بعد ذلك مع ما عليه من بقايا. ثم

تضع هذا الرغيف ذاته على الطاولة عند الوجبة التالية.

مع أن والدتي شديدة المراعاة لآداب التصرف، وقد ربتني على ذلك.

ادعيتُ أمامها مرّة في إحدى زياراتي الأخيرة، أني ذاهب عند طبيب الأسنان، ثمّ سألتُها عمّا إذا كان بأسنانها شيء يستدعي العناية، فاسودّ وجهها من الغيظ، لكنها اكتفت بأن هزّت رأسها، بلا أن تعلّق أو أن تجيب. أدركتْ أنني كنت أكذب، وأنني لست ذاهباً عند طبيب الأسنان، وأنني ادّعيت ذلك ادّعاءً حتى أستطيع التلميح، مواربةً، إلى موضوع تنظيف أسنانها بيدها أمامي بينما نحن نأكل معاً.

ثمّ إنها تُدخل إصبعها في أنفها، وتقشط ما في داخله، ثمّ تمسح إصبعها بما تيسّر لها، في حضوري. كأنّ والدتي لم تعد تراني وأنا أمامها آكل معها أو أكلّمها (أكلّمها بأمور عابرة بالطبع).

هل تفعل ذلك والدتي لأنها باتت تعتبر وجودي وعدمه الشيء نفسه؟ أم إنها تفعل ذلك لأنني موجود ولتعبّر عن اشمئزازها من هذا الوجود؟ أم أنها ليست مستعدة أن تبذل أيّ جهد مراعاةً لي أثناء وجودي، فتتصرّف بدل ذلك بتلقائية غريزية، وبلا حرَج؟

هل تعتبر والدتي أن وجودي بات يساوي صفراً، فلا يجري عليّ ما يجري على الآخرين الموجودين فعلاً من واجب المراعاة والاحترام

وما إلى ذلك؟

أم أنّ الأيّام نالت من قدراتها على السيطرة على تصرّفها، أو بالأحرى نالت من رغبتها في السيطرة على تصرّفها، حتى بلغت حالة اليأس و لم يعد لشيء عندها قيمة؟

أتساءل الآن، أقصد بعد مقتل والدي، هل صارت تتصرّف في حضوره كما صارت تتصرّف في حضوري؟ هل أخلّت بالاتفاق الذي كان معقوداً بينهما منذ زواجهما؟ هل أغاظ هذا والدي وحاول الانتقام على طريقته؟

لا أذكر أنني فاجأتُ والدتي في وضع غير لائق، أو في وضع محرج لي ولها، كما يمكن لكل ولد أن يفاجئ والدته، في الحمّام مثلاً أو وهي عارية لم تلبس ثيابها بعد، أو وهي ترفع جواربها إلى الأعلى، وما إلى ذلك. أذكر فقط ما كنت أسمعها تخبر عنّي عندما كنت صغيراً، كنتُ وهي تحملني أدخل يدي في صدرها وأقول: "أريد أن أرى!" فتضحك من كل قلبها، وأكثر ما كان يضحكها أنني كنت أعترض عليها وأدّعي البكاء، لأنها تمنعني من إدخال يدي في صدرها. وظلّت تضحك من كل قلبها كلّما أخبرت هذه الخبرية، حتى بعدما كَبُرتُ. لكنني في الفترة الأخيرة صرت أفاجئها بشكل يصدمني. وليست طبيعة الشيء ما كانت تصدمني بل دلالته ومعناه، فقد كان إشارة إلى هذا التغيّر الذي جرى على والدتي المعروفة باللياقة وحسن

التصرّف. كنت أخشى أن يكون هذا بدايةً لما يسمّيه الناس الخَرَف، وأحزن كثيراً. رأيتها مرّة وكان طرف الجهة الخلفية من فستانها عالقاً في كيلوتها، بحيث إن قفا فخذيها كان عارياً، فنبّهتُها لذلك فسوّت فستانها أمامي، بكلّ بساطة، كأنها كانت وحدها وانتبهت إليه.

ووالدتي ليست متقدمة في السنّ كثيراً، فعمرها دون الستّين، وتبدو بالفعل كأنها دون الخمسين، فما من أحد إلا يُفاجأ حين يطّلع على عمرها، ولا يبدو واضحاً عليها أنها تشكو من مرض أو من ضعف في العقل أو في الجسد، وتأكل جيداً وتنام جيداً، وتنشط في البيت وحدها لا يساعدها أحد أبداً، وتمشي في الخارج مسافات بلا تعب، وتحمل وحدها كلّ ما تتبضع به وتعود به إلى البيت. واللافت أنها في الخارج تراعي الأصول التي عُرفت بها، ولم يبلغني أيّ خبر عن تغيّر في سلوكها، يبدو أنّ هذا التغيّر جرى على تصرّفها في البيت فقط.

أتساءل الآن، أقصد بعد مقتل والدي، ما إذا كان لهذا التحوّل علاقة ما، من بعيد أو قريب بمقتله، وكيف؟ كيف قُتل والدي؟ ولماذا؟ هل عجز عن تقويم اعوجاجها أو الانتقام منها، فانتقم بشكل ما من نفسه؟ ما الذي جرى؟ ما هي هذه الأسباب الثأريّة التي تذكرها جميع الجرائد، ومن زمان خفّت نشاطات والدي "الثأرية"، وأصبح أكثر حكمة ورويّة؟

فهل صار يغيب عن البيت أكثر مما كان يغيب؟ هل قرّر على طريقته

تفجير الوضع الذي لم يعد يستطيع احتماله؟ ووالدي لا يستطيع احتمال وضع لا يُحتمل. هذا شيء فيه.

وكيف لي أن أعرف هذه الأمور المخفيّة، التي لا يمكن أن تقولها الجرائد، ولا التقارير الأمنية عن أي جهة صدرت، إلا بالذهاب إلى هناك؟

كنت أعيد قراءة رسائلي في البريد الإلكتروني على الكومبيوتر، وأقنع نفسي بضرورة تناسي كلّ الموانع والمخاطر والمحاذير والانطلاق فوراً، بلا مزيد من الانتظار، أو إضاعة الوقت، عندما رنّ جرس الهاتف، وكانت الساعة حوالى التاسعة مساء. قلت: "أخيراً هذه سلوى!" لكنها كانت الوالدة!

نعم! كانت الوالدة بذاتها وبكلّ بساطة.
- ولوّ يا أمي! ولو! قلت لها وضغط دمي يرتفع.
- ولوّ على شو؟ قالت.

قلت لها من المعقول أن أعرف بمقتل والدي بالصدفة؟
- في المقهى! صرختُ!

- عرفت أن والدي قتل بالصدفة في المقهى! ردّدت في وجهها بصوت منفجر. وقلت لها إن المقيمين في أميركا والعالم كلّه عرفوا

بالحادث ما عداي، وقرأت لها نتفاً من بعض الرسائل التي وصلتني.

أنا المعني بمقتله وليس أنت قلت. أنا ابنه وليس أنت. أنا المعني بالثأر له وليس أنت!

- أنت، قد يكون هذا أجمل يوم في حياتك! قلت بكلّ ما فيّ من قوّة، وشهقت بعدها بعمق وقوّة شديدين، كأنني أشهق أشياء البيت جميعها، وكأنّ الهواء لم يبلغ رئتيّ من دهر.

قالت (بهدوء):

- اتّكلتُ على أعمامك وأعمامكَ اتكلوا عليّ، ويبدو أن القضيّة ضاعت هكذا! وقالت: "فهمتُ من أحدهم أنّه تمّ الاتصال بك، ولّما رأيتك لم تأتِ ظننتك مسافراً، وأعتقدُ أن الجميع ظنّوك مسافراً."

وبينما هي تقول لي العبارة الأخيرة، سمعت في الهاتف صوتاً يطلب من والدتي أن تقول لي: "كانت دائماً تردّ المسجّلة! وأنا لا أعرف كيف أترك رسالة على المسجّلة، اتصلت مائة مرّة ثمّ أخيراً ظننته مسافراً. كنتُ أكيداً أنه مسافر."

كان هذا الصوت صوت عمّي الأصغر بالذات! عرفته!

كانت والدتي إذن تتصل بي من بيت عمّي، من عند مريم. وقد أكدت لي ذلك عندما سألتها.

كان ذلك مساء الإثنين.

وقبل أن أقول لها إنني آت فوراً سألتها من قتله ولماذا؟ فأجابتني أن هذا الموضوع لا يُجرى الكلام عليه بالهاتف، وأنها ستخبرني حال وصولي.

أخبرتُ والدتي أن البعض من الأقرباء في بلاد الاغتراب، عرضوا عليّ في رسائلهم الإلكترونية، المساعدة من أجل الثأر له، وقالوا إنهم مستعدّون لكلّ ما يترتب عليهم، فلم تجب، كأنها لم تسمع هذا الكلام، فسألتها إن كانت ما زالت تسمع، فقالت بلى! ثم بعد لحظة أضافت، "صار في دولة!" في إشارة منها إلى انتهاء الحرب، وحلّ الميليشيات، وعودة مؤسسات الدولة إلى العمل، ووجوب تقديم دعوى بدل الانتقام وأخذ الحقّ باليد.

بعد أن أقفلتُ الهاتف، جمعتُ سريعاً بعض الأغراض الضروريّة لإقامتي عدة أيّام هناك، ووضعتها في حقيبة صغيرة، وخرجتُ إلى مكتب سيارات تاكسي قريب من البناية حيث أقيم.

لم آخذ معي كتاب تعلّم الإنكليزية كما في المرّتين السابقتين. و لم أتصل

بسلوى لأخبرها بغيابي وبسببه. وحتّى وأنا في السيارة، لم أتصل بها. كان الهاتف النقّال في يدي، وبطّاريته مليئة ومشرّجة تماماً، وليس عليّ سوى أن أضغط على ثلاثة أزرار لأخرج رقمها من الذاكرة وأطلبها.

في الطريق أحسست برغبة في الاسترخاء لعلّي أغفو، فاسترخيت، واستسلمت للأفكار تجيئني كما تشاء، واستسلمت لأحلامي وذكرياتي، وصُوَرٍ من هنا ونُتَف من هناك، وكان بين ما تذكرته مقتل شاب من العائلة، وكنت أثناءها في العاشرة من العمر، فصرت أراه في الليل أنا ورفاقي، بقميصه الأبيض الناصع البياض، كان يظهر علينا بنصفه الأعلى، آتياً من بساتين الليمون المعتمة عند طرف البلدة، وعلى قميصه بقع حمراء على عدد الرصاصات التي أصابته، كنّا نخاف كثيراً مما نراه، فأخبرنا أهلنا والكبار، فنصحونا بأن نناديه باسمه حين يظهر علينا ليختفي فوراً، وحذّرونا من أن نتباطأ في مناداته لئلا يتأخر في الاختفاء، فنصبح مضطرين عندئذ إلى أن نقول له "يَلّه!" وإلا غضب منا، وغضبُ الميت عواقبه بشعة، ومعنى قولنا "يَلّه!" أننا نعده بأن نثأر له سريعاً في أقرب وقت، ومن لا يفي بوعده يظل يظهر عليه طوال العمر، وقد يسيء إليه ويؤذيه. وأخبرنا أهلُنا والكبارُ في ما بعد، أن أخا القتيل الذي ثأر له بعد فترة، كان يتباطأ في مناداته باسمه عن قصد، حتى يُبقيه ظاهراً عليه ما أمكن، فيتسنّى له أن يراه طويلاً، لأنه كان يحبّه، بل أحياناً كان يمضي ساعات قبل أن يقول له "يَلّه!" وقيل لنا أيضاً إنه ظلّ يراه حتى تزوّج وأنجب طفله الذكر الأول، وسمّاه باسمه.

أنا شخص من زمان لا أؤمن بالأشباح، ومن زمان أيضاً لا أؤمن بأن الموتى يبقون على علاقة بظاهر قشرة الأرض، بل بالعكس أوقن بأنهم يتحلّلون في هذا التراب الذي يُطمرون فيه، ويتحوّلون مع الأيام إليه، لكن أبي رغم كل هذا اليقين، كان يظهر عليّ وأنا في السيارة التي أقلّتني إلى زغرتا، وكان أحياناً يجتاز الطريق أمامها، فتكاد تصدمه فأهمّ بالصراخ لأنبّه السائق. كان فيه ما يشبه تلك الكائنات التي نشاهدها في سينما الأساطير، هذه الحيوانات التي تدور حول فريستها، وتفاجئها كلّ مرّة من صوب، قبل أن تنقضّ عليها الانقضاض الأخير. وكان يلبس بدلة مع ربطة عنق، وكانت ذقنه طويلة وشايبة، وكان كلّ مرة يبدو أنه في فصل مختلف من فصول السنة، مرّة في الصيف ومرّة في الشتاء.

خفتُ من هذا الترائي، بل أكثر من ذلك، رأيت فيه علامة شرّ قادم، فسألت السائق فجأة وكنّا في منتصف الطريق:

"هل ترى أحداً؟"

فاستفسرني عن قصدي، فحرت في ما أجيبه. كان يستحيل عليّ أن أوضّح له كيف أن والدي يتراءى لي، وهو يرودُ المكان حول السيّارة، على قدميه، وكيف أن سرعة السيارة ليست عائقاً له إطلاقاً، لأنه يجري بسرعة الخاطر. نعم! بسرعة الخاطر كان يجري والدي حول السيّارة

المنطلقة بما أمكن، في تلك الوصلة من أوتوستراد بيروت طرابلس، في حالات، قُبيل جبيل، حيث كانت القوات اللبنانية تريد إقامة مهبط للطائرات، أثناء الحرب في لبنان. وكان الطقس صحواً والقمر مشعّاً والسماء غيوماً متفرقة.

لم أستطع إيجاد وسيلة لأغيّر الموضوع، وأنسي السائق السؤال الذي طرحته عليه، سوى أن أسأله سؤالاً آخر فقلت:

- هل سمعتَ يوماً أن أحداً قُتل والدهُ و لم يُبلّغ بمقتله؟ لا والدته بلّغته ولا أعمامه ولا أصدقاؤه ولا أحد!

فأجاب السائق:

- وكيف عرف؟

قلتُ:

- وهو ابنه الوحيد!

قال:

- وكيف عرف؟

قلت:

- بالصدفة!

قال:

- أين يقيم؟ في الخارج؟ مهاجر؟

قلتُ:

- لا! في بيروت!

قال:

- هل هو والده بالتأكيد؟

فأحسست بالتعب الشديد فجأة، وأحسست أنّي لو أجبته ولو بكلمة واحدة لتطلّب مني ذلك جهداً لم يكن في استطاعتي بذله، لكنني مع ذلك قلت له، بعدما صبرت قليلاً وتنفّست عميقاً، لأستجمع قواي:

- بالتأكيد! بالتأكيد!

صدر للمؤلف:

- **حين حلّ السيف على الصيف**، شعر، مع ترجمته إلى الفرنسيّة (جمال الدين بن شيخ)، الفارابي، بيروت 1979.
- **لا شيء يفوق الوصف**، شعر، منشورات لبنان الجديد، بيروت 1980.
- **أي ثلج يهبط بسلام**، شعر، دار مختارات، بيروت 1993.
- **أنسي يلهو مع ريتّا – كتاب البالغين**، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر، بيروت 1983. ترجم إلى الأسبانية.
- **المستبدّ**، رواية، دار أبعاد، بيروت 1983. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **فسحة مستهدفة بين النعاس والنوم**، رواية، دار مختارات، بيروت 1986. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.
- **أهل الظلّ**، رواية، دار مختارات، بيروت 1987. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. ترجمت إلى الفرنسية.
- **تقنيّات البؤس**، رواية، دار مختارات، بيروت 1989. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **غفلة التراب**، رواية، دار مختارات، بيروت 1991. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **عزيزي السيّد كواباتا**، رواية، دار مختارات، بيروت 1995. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. صدرت مترجمةً إلى ثماني لغات أوروبيّة هي: الأسبانيّة، الفرنسيّة، الإيطاليّة، الألمانيّة، الإنكليزيّة، الهولنديّة، السويديّة، البولونيّة، في سلسلة "ذاكرة المتوسّط".
- **ناحية البراءة**، رواية، دار المسار، بيروت 1997. ترجمت إلى الإنكليزية.

الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013.

– **ليرننغ إنغلش**، رواية، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى 1998، الطبعة الثانية 1999، الطبعة الثالثة 2000. الطبعة الرابعة دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2005. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية. الطبعة الخامسة، دار الساقي، بيروت 2013.

– **تصطفل ميريل ستريب**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2001، الطبعة الثانية 2008. ترجمت إلى الفرنسيّة والإيطالية واليونانية والاسبانية. الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت 2013.

– **إنسي السيارة**، رواية، دار رياض الرّيس للكتب والنشر، بيروت 2002. الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013. ترجمت إلى الفرنسية والبرتغالية.

– **معبد ينجح في بغداد**، رواية، دار رياض نجيب الرّيس للكتب والنشر، بيروت 2005. ترجمت إلى الفرنسية.

– **عودة الألماني إلى رشده**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعتان الأولى والثانية، 2006. ترجمت إلى الألمانية. الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت 2013.

– **اوكي مع السلامة**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2008. الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013.

– **تبليط البحر**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2010.

– **وطني ليس على حق**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001 (محاضرة ألقيت في مقرّ الأمم المتحدة في جنيف بمناسبة سنة حوار الثقافات 2001).

كان في المقهى في بيروت حيث يقيم، حين قرأ في الجريدة خبر مقتل والده في ساحة البلدة، لأسباب ثأريّة. فلماذا لم يتّصل به أحد ليخبره بالحادثة، وهو الابن الوحيد لوالديه، والمعني الأوّل؟ فهل من شكّ في نسبته إلى والده؟ هل هو ابن علاقة أقامتها والدته مع آخر؟

وهكذا تبدأ جلجلة البحث عن الذات.

رشيد الضعيف كاتب وروائي لبناني. صدر له عن دار الساقي «تصطفل ميريل ستريب»، «إنسي السيارة»، «أوكي مع السلامة»، «عودة الألماني إلى رشده»، «ناحية البراءة».



